COLUMBIA UNIVERSITY
0030458684

COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK

غابة الكافور

مجموعة قصص

عاشها

سعيد تقي الدين

دار العلم للملايين - بيروت

١٩٥١

غابة الكافور

مجموعة قصص

عاشها

سعيد تقي الدين

دار العلم للملايين - بيروت

١٩٥١

للمؤلف

•

لولا المحامي	١٩٢٤
قضي الأمر	١٩٢٦
نخب العدو	١٩٤٦
حفنة ريح	١٩٤٨
غابة الكافور	١٩٥٠
المنبوذ	(قد تطبع)

هذه القصص ، وهي بعض حياتي ، أقدمها
الى من هي كل حياتي — ابنتي

ديانا

سعيد نفي الدين

Butl Stax
893.78T16
R

سيرة صاحِب «غابة الكافور»

بقلم المعجب به حتى العبادة :

سعيد تقي الدين

●

تخيرت « بعقلين » الشوف ، لبنان ، بلدة أسقط بها رأسي . ولو أنه أعطي لي ان اتقمص الف مرة لما نزلت إلا « بعقلين » دارَ مولد .

وحين فتحت عيني وتحققت اني اصبحت من اهل هذه الفانية علا صراخي ، فغمرته امواج من زغاريد النساء وحداء الرجال ابتهاجاً بقدومي . فعلمت ان القوم يرحبون بي . فسرّي عني ، وسألت مَن هؤلاء الفرحون بلقاء من لا يعرفون ، فقيل انهم دروز . فاحببتهم ولم أزل . واني اعترف ، وقد طهرت نفسي من اي تعصب طائفيّ ، ان ليس في الدنيا ما يهز من اعماق نفسي اوتارها مثل سماع طقطقة القاف الدرزية الصلبة القاسية ، وان مدن العالم وقراه ودساكره تكبر اهميتها او تضؤل بنسبة قربها الى « بعقلين » او بعدها عنها .

لم اعرف كم كان شغفي بأبي حتى فقدته . فلم يكن ابي ،

FEB 18 1953

محمود تقي الدين ، على شدة حبه لاولاده وحنوّه عليهم بعشيرهم ، كذلك لم يكن له ذكاء رجال اليوم . اذ انه قضى حياتـــه في وظائف الحكومة ، مقتصرةً موارده منها على راتبه الشهري . لذلك عشنا في بيت فاقة .

وكان من اسباب فقرنا املاك من كروم زيتون ورثناهـا ولا تزال تقتات باتعابنـــا . كل ما جنيناه من تلك الاملاك اننا نشرنا اغصانها في الجوّ وقلنا للجيران هـــذه اعلامنا . اذكر ذلك حتى لا تفاجأ بنبأ هجرتي عام ١٩٢٥ الى جزائر « الفلبين » .

اما امي ، زهية عبد الملك ، فهي بعض الالوهية الذي انشطرتُ عنه ولا ازال منه . اعظم طموحي في الحياة ان اقنعها اني لم اعـــد طفلاً .

ودفنت فـــترة من سني طفولتي وشبابي بطوفة من النور والشاعرية والخلق الرفيع غابت عن هذه الدنيا منذ سنوات كان اسمها امين تقي الدين - هو عمي . اقول « هو » ولا اقول « كان » لاني اقنعت نفسي ، حال علمت بوفاته ، انه لا يزال حياً .

ثم مرحنا في مهرجان من الفكاهة والسخرية والدعاب طول الطفولة والفتوة تحت اشراف اخوالي عـــارف وسامي وفؤاد عبد الملك . ولا نذكر كبيرهم نجيب اذ لم يكن لتعيبنا . وكان موته فجاة وقصفاً . فنحن لا نذكر اسمه منذ توفي عام ١٩٢٣ . ولا يمر بنا ٢١ ايلول — يوم قضى — إلا وكانا في غمّ وكآبة . ومنازلنا في صمت .

هذا هو « المنزل » الذي نموتُ فيه الى جانب اخوتي خليل ،

وبهيج ، ومنير ، وبديع ، ونديم ، واختنا الكبرى ادال – هي اليوم مدام خليل علم الدين .

اما المدارس فقد نزلت منها في بحور مشتبكة التيارات . فمن رهبان يحفرون العلم حفراً وتنزيلاً ، الى شيوخ يهذبون بالفلق والعصا ، الى مدارس تبشيرية افرنجية تزيد في الرقة حتى التأنث ، الى راهبات يسألنني في صمت : لماذا لا تتنصر يا كافر !

وفرّق بيني وبين اللسان الفرنسي قضيب رمان .

وحملت من هذه المدارس التبر والتراب الى المطحنة الكبرى في رأس بيروت – الجامعة الاميركية – فصهرتها وصهرتني . هناك قضيت ثماني سنوات انفقتها في السباحة والبسكتبول ، ودرس الشتائم الراسبيروتية ، وألفت مسرحية « لولا المحامي » . ولما وضعوا في يدي شهادة ، انطلقتُ الى جزائر « الفلبين » ، اتلفّتُ ورائي خوفاً ان يكون صاحب مطعم « فيصل » الذي يواجه الجامعة متأثراً خطواتي وقائمة الحساب في يمينه .

وفي « الفلبين » عشت – ومتّ – ٢٢ سنة ونصف . وهناك استوردت كل ما تعرف من اصناف البضاعة . فتحت محطة بنزين . فتحت سينما . كنت « دواراً » ، اي بائعاً متجولاً . ابحرت . طرت . سافرت على الخيل . ركبت على الجاموس . اغتنيت . افتقرت . لعبت بالبورصة . فتشت عن الذهب . كنت : حانوتياً ، مستورداً ، مصدراً ، كومسيونجياً . اتجرت بمخلفات الجيش ، بمخلفات الحيوانات . سوكرت حياتي لأنتحر . أفلست ودفعت ديوني . جعت . أتخمت . سجنني اليابانيون ٥٣

يوماً و٥٤ ليلة . خلال سنيّ الحرب واجهت الموت ، في اكثر الاحيـــان مختبئاً ، مليون مرّة . شاركت اميركياً . قوّست صينياً . آخيت فلبينياً . عُينت قنصلاً للبنان ومشيت بالقنصلية على اصول دبلوماسية لم تطبع في الكتب . ابغضت . احببت .

آ... على مهلك ! أحببتُ بياتريس جوزف ، وهي زوجتي اليوم . تزوجنا سرّاً . فبعض اسباب اعتراض اهلي انها مسيحية ، وبعض اسباب اعتراض اهلها اني درزي . الله يمحق التعصب ! الله يمحق النوَر ! وهي اليوم تذهب الى الكنيسة كل احـــد ، وفي غرفتها صورة العذراء . وليس في حياتنا الزوجية من اضطهاد ديني إلا امر واحد ، وهو انها تقرأ لي كتاب المسيحيين ، ولا اقرأ لها كتاب الدروز .

ورزقنا ابنـة — ديانا — هي في الخامسة عشرة اليوم . من لا يطرب لعزفها على البيانو يحسن به ان يقتطع اذنيه .

هل اخبرتك انني الفتُ في « الفلبين » مسرحيتين : « نخب العدو » و« حفنة ريح » ونحواً من عشرين قصة ؟ ومنذ رجوعي الى لبنان في نيسان من سنة ١٩٤٨ كثرت التقولات عن ثروتي. فالذي يعتقد اني املك الملايين يسألني باستغراب : لماذا لا اشتري بناية ؟ والذي يتوهم اني معـــدم يستدل على فقري باني لم اشتر بناية . الله يمحق الفقر ! الله يمحق الغنى ! الله يمحق النوَر ! اجمـــل الحروف هي علامة الاستفهام .

وكان من اجمل الاحلام التي حققتها الايام فور عودتي الى لبنان اجتماعي برفيق الصبا ميشال سماحه . فأسسنا مكتباً للهندسة والمقاولة

اقتسمنا فيه الاعمال . فهو طوال النهار في غرفته يعالج خرائطه، وانا في غرفتي اشرب القهوة وادخن النارجيلة . وحين ينتهي ميشال من تجفيف المستنقع في البقاع ، سأذيع على البشر اننا « جففناه » . كذلك سأقف في تلك الارض المجففة فأرى البطيخ حيث كانت البرغشة اكبر من رأس البطيخ ، وأصيح باعلى صوتي : « الله يمحق البنايات ! الله يمحق النوَر ! ».

وفيما عدا ذلك — اي بعد عودتي الى لبنان — زرعت في الاثير نحواً من عشرات الحطب ، والكثير من المقالات وصفحات من « رفة جناح » — هل قرأتها ؟ « لئن ضنّت عليك الحياة بطيباتها فروّها بالسراب » . « لقمة الماء لا تشبع ولا تروي » .

وألّفت هذه القصص . وانتخبت رئيساً لجمعية متخرجي الجامعة الاميركية ، و ... على مهلك . هذه مقدمة لمجموعة قصص لا المجموعة نفسها .

واليوم لئن تفلّتّ من هذه الضجة التي تقوم حولي وتسكرني فسأثب من جديد . اثب الى اين ؟ ألم اقل لك ان اجمل الحروف علامة الاستفهام ؟

فاتني ان اذكر لك اني ولدت — وهذا امر ثابت — في ١٥ ايار ١٩٠٤ ، وان اهمس في اذنك اني لا ازال حياً ، وهذا امر ستؤمن بحقيقته متى قرأت هذه المجموعة .

قفزة النهر

يخبرني العائدون من « مانيلا » هذه الايام ان لوكندة كبرى قامت هناك حيث انتشرت خيامنا في صيف عام ١٩٤٥ . وان انوار تلك اللوكندة تفور في الليل فتغمر ما حولها ، وان مرتاديها يأتونها ازواجاً وزرافات ، فترى النساء في اثواب السهرة تكشف الظهور وأعلى الصدور والرجل ابيض اعلاه ، واسود اسفله ، ولمع حذاؤه لمعان ابتسامته وانطلق لسانه بالكلام الكميس المعسول . ثم يصف هؤلاء العائدون من مانيلا البذخ والفخامة والموسيقى الناعمة الحريرية ، او الصخابة الثائرة التي تملأ قاعات ذلك الفندق الفخم الكبير .

عسير علي ان اتخيل كل هذا ...

اني كلما ذكرت تلك البقعة من الدنيا لا أرى الا مخيمنا ، نحن اللاجئين الاجانب الذين خدعنا الموت واليابانيين وفررنا من مختلف انحاء « الفيليبين » حتى وصلنا الى العاصمة « مانيلا » جياعاً ، مذعورين ، منهوكين ، معدمين ، فأسكننا الجيش الاميركي في خيامه ووزع علينا الالبسة والطعام .

ولقد ذهبت بعد الاسبوع الاول نشوة النجاة من الاخطار ،

واصبح الحذاء العسكري الذي وهبني اياه الجيش ثقيلا في قدمي، ولم اعد ازدهي بثوبي العسكري ، واكتشفت من غير ان اجسر ان اصارح نفسي انني كنت كاذباً عليها حين كنت اقول لها بين مخاوف الحرب ان كل ما ابتغي من الدنيا هو ان ابقى فيها حياً معافى .

فها أنا حي معافى مستلق على ظهري في تلك الخيمة يملأ البؤس نفسي وتشرد بي الأفكار .

بل ، ان الحياة جميلة شرط الا تكون فقيراً يعولك جيش أجنبي ويكسوك، وان لا تمسي شريداً بعد سعة، ووحيداً فتكت الحرب باحبائك وعشرائك .

ولقد زاد في عتمة تلك الخيمة ذلك الظلام الذي انتشر بيننا وبين لبنان ، فنحن لا نعرف من امور اهلنا ولا شؤون بلادنا شيئاً . ترى كيف حال احبائنا في الوطن ؟ هل نكبوا هم مثلما نكبنا ؟ ولماذا هم لا يتصلون بنا ؟ ولماذا يا ربّ يسرت للجاليات الاجنبية ، ولم تيسر لنا ، حكومات ومنظمات هرعت الى بني شعبها ، بالمؤن والعلاجات ووسائل التشجيع ؟ أقضيَ علينا ان نبقى نكرة وعالة على الاغراب ؟ والمستقبل — أي رزق نقوى ان نكسبه بين رماد الحرب وخراب القتال ؟

وفيما هذه الافكار تسبح في رأسي في تلك الوحشة المؤلمة سمعت اسمي ينادى به على المذياع فحسبت نفسي حالماً : «الكولونيل ردبرج يود ان يقابل... في المكتب العام » وارهفت اذني ثانية فسمعت الرسالة تردد على المذياع فايقنت اني لم اكن بالحالم ، فلما دوت

الرسالة للمرة الثالثة والاخيرة كانت يداي المرتجفتان تصارعان حذائي العسكري الهائل . ووثبت – اقول وثبت ! – من تلك الخيمة ، ورحت اركض خفيف القدمين غير حافل بالظلمة ولا الوحول .

من هو هذا الكولونيل ردبرج ؟ لعله من « اولاد العرب » في الجيش الاميركي ؟ لعله صديق عميلنا في نيويورك يحمل لي الثروات . لعله ..

ومد الكولونيل ردبرج يده مسلماً فاذا هو شيخ في نحو الستين ، مهذب رصين الحديث .

« اعتذر عن ازعاجك يا بني . غير اني قصدتك في امر ارجو اليك ان تسعفني في تحقيقه » قال : « ان من يرجو مني الاسعاف اليوم يجب ان يكون من البؤس في حالة .. » فقاطعني ضاحكاً قائلا : « انا طبيب في الجيش . انها لفرصة نادرة ان احظى بالمجيء الى هذه المدينة اذ ان بين سكانها شخصاً هو من الالغاز الطبية . عنيت مواطنك .. »

وفتح الدكتور حقيبة وانتزع منها كدسة اوراق ثم أحكم النظارتين على انفه وتابع : « مواطنك سلمن ماك .. »

صحت مقاطعاً : « سليمان السماك » !

– بلى ان هذا الرجل هو لغز لم يحله علم الطب . فهو بحسب التقارير العديدة التي نشرتها الجمعية الطبية في شيكاغو كان من الواجب ان يموت منذ عشرين سنة ولكنه لم يمت . اريد ان اجتمع به ، لأتعرّف الى سر بقائه حياً . هل لك ان تعينني على حل

هذا اللغز خدمة للعلم؟ وهل لك ان تدخل الى المطعم هنا فنشرب كأساً من الويسكي، وبعد هذا أرجوك ان تتفضل فترافقني في الـ « جيب » الى منزل مواطنك.

قلت: «حباً وكرامة. اني اعرف الكثير عن هذا المواطن. ان بقاءه في الحياة بعد ان حكم عليه الاطباء بالموت لعجيبة عظيمة، وستكون عجيبة اعظم ان يكون قد نجا حياً بعد ان قتل مائة وعشرون ألفاً من سكان هـذه المدينة الاصحاء وخرب سبعون بالمائة من منازلها.»

ولما جاءت الكؤوس والويسكي عاد الطبيب الى الحديث مقلباً اوراقه:

« لقد درست – من بعيد بالطبع – علل هـذا المريض، فهو اليوم في الثامنة والخمسين من العمر. في سنة ١٩١٠ كان متحجر الكبد مصابا باليرقان. لقد استخرج جرّاحه مراراً كميات من الماء تتراوح بين خمسة ليترات وعشرين ليتراً، وسبب تحجر كبده مرض السفلس. كذلك هو مهترىء في طحاله اذ اصابته حمى الدمدم – بعض الناس يعرفونها بالحمى السوداء – وقد كانت هذه الحمى شديدة عليه فسببت له نزيفاً من مصرانه وعينيه، وزنه ٨٢ ليبرا، كرويات الدم.. ولكن لماذا اتعبك بذكر حقائق علم الطب. حدثني بكل ما تعرف عنه، اياك ان تهمل التفاصيل مهما حسبت انها تافهة.»

قلت: « ان ما اعرفه عن سلمن – سليمان – لا يستغرق الطويل من الوقت لسرده. هو من قرية لبنانية – في اعالي جبل لبنان –

مجاورة لقريتي ، نعرفه باسم سليمان السماك ، لان اباه كان صائد سمك ، ففي جوار قريته نهر لو انه في اميركا ... من اية ولاية حضرة الدكتور ؟ »

— « من تنسي ، وهي جبلية وعندنا انهر كثيرة . »

— « ان ذلك النهر حيث كان ابو سليمان يصطاد ، ما هو بالنهر كما تعرفون في اميركا . لو انه في « تنسي » لقالتم انه ساقية . أكثر لاشياء في لبنان صغيرة ، ولكن بينها اموراً كبيرة كالضغينة مثلا ، هي في لبنان ضخمة الى حد كبير .

كان ابو سليمان يعيش مما يصطاده . وفي ذات يوم اذ هو يرجع من النهر التقى بمن زف اليه بشرى عظيمة وهي ان الصياد اصبح اباً لتوأم — صبيين . من يقدر ان يصف فرح ذلك القروي بولادة غلامين دفعة واحدة ، اراد أن يسميهما « عنترة وابو زيد » ثم استقر رايه على « سليمان وسليم » ، ونشأ الفتيان أنبه شبان الضيعة فقد كان كلاهما مضرب الامثال بالفروسية . غير ان سليمان كان اشد مراساً من اخيه واسرع غضباً .

كبر الاخوان ، ولا ادري ما الذي جرى فتخاصما وتباغضا واضمر الواحد الشر للاخر . كلمة « اضمر » ليست باللفظة الصحيحة فقد كان العداء كذلك ظاهراً والتهديد والوعيد داويين ، وكانت نساء القرية تقول « يا ويلنا من يوم يشتبك فيه الاخوان » .

في ذات يوم طفر سليمان الى البراري ووجهته النهر وكان في زناره مسدس وسكين ، وكان يمشي مسرعاً متوعداً . وأطل على النهر فضاعف سرعة مسيره منحدراً نحو البركة الزرقاء — يسمونها

كذلك لانها عميقة — وسليمان يعرف ان اخاه هناك على ضفتها يصطاد ، فانحدر صوبه ، وما ان مشى المنعطف حتى رأى اخاه واقفاً يرمي بشباكه عند فوهة البركة . مد سليمان يده الى مسدسه وانتشله وصاح باخيه شاتماً ، وهمّ ان يطلق مسدسه ولكنه رمى به ارضاً وقفز النهر الى الضفة الثانيـــة ونهض رافعاً ذراعيه ، مكوراً اصابع يديه هاجماً على اخيه والزبد على شفتيه واللهب في عينيه . غير انه لم يصل الى فريسته فان جمعاً من الاكارين كانوا يستريحون على ضفة النهر حالوا بين الاخوين .

في تلك الليلة اجتمع كهول القرية وشيوخها وقرروا أن يفصلوا بين الاخوين حفظاً لهما فيسافرا الى اميركا ، الى بلدين تفصلهما ابعد مسافة . وبعد الرجاء والسياسة والحيلة سافر سليم الى الارجنتين وجاء صاحبنا الى « الفيليبين » .

كان ذلك منذ نحو من اربعين سنة .

وبقيت « قفزة النهر » حديث القرويين في لبنان . لعلهم الان يقيسونها بالكيلو مترات لا بالامتار .

اما سليمان فقد اصاب هنا شيئاً من النجاح . فهو يملك سينما يكفيه دخلها ويزيد ، ولم يكن في عاداته ما يميزه عن المواطنين الا عبوسه وحبه للعزلة . وكثيراً ما افاجئه يدمدم ويحدث نفسه ، ويشتم ثم يرفع ذراعيه ويشد بيديه كأنه يخنق عدواً . وحقاً كانت تخيفني عيناه . ولم يكن بيني وبينه حميم صداقة ، الا انني كنت اكتب له رسائله الى اهله ، اقرأ عليه الرسائل الواردة من لبنان لجهله القراءة والكتابة ، وكان يصغي اليّ غيرَ آبه إلا للاخبار التي

فيها عن الارجنتين فارتجف انا كأنني اسمع دوي غضبه الصامت.

والآن هيا بنا يادكتور فالتجول ممنوع بعد الساعة العاشرة »

وقفزنا الى « الجيب » ورحنا نقطع شوارع مانيلا في ذلك الليل ، وليس على جوانب الطرق الا مظاهر الدمار . وكنت كلما حسبت انني وصلت حذاء قصر اعرفه احدق بنظري وادير مصباحي الكهربائي فلا ارى الا آثار الحريق. غير اني حين صوبت بمصباحي الى حيث عهدت بيت سليمان رأيت البيت لا يزال حيث هو. وصعدنا الدرج الخشبي ودرنا يميناً الى الغرفة التي طالما دخلتها وقرعت الباب فانفتح حالا وظهرت البطة السوداء ، يسميها المثقفون «خليلة»، ونسميها في المهجر «تلك التي عندي» وراحت تضج بمثل اصوات البط فرحة برؤيتي وتعيد سؤالها : لم يقتلك اليابانيون؟ لم تقتلك القنابل ؟ ثم بصقت على الارض معلنة نهاية النهاية في الجذل . وصاحت الى الداخل « مواطنك السمين هنا يا سلمن ! »

وتقدمت الطبيب الى حيث تراقص نور شمعة، وحقاً احسست اننا في صالون اموات ، واننا واقفون أمام جثة . واخيراً تحرك الرأس وانفتحت العينان ضاحكتين ولفظ سليمان اسمي مبتسما . وكأن ذلك انهكه فاطبق عينيه ثانية . وبعد لحظات تدفقت الحياة من جديد وارهف وعي المريض فاشتعلت عيناه بقوة : اهلا وسهلا من هو رفيقك؟ ان كان طبيباً رميته من هذه النافذة ورميتك خلفه!

اجبته كاذباً : « ما هو بطبيب، بل هو كولونيل في الجيش. صديق لي » .

فصمت سليمان ثم صاح : « انت كاذب . انه يحدق بي ويكلمني

مثل زملائه الملاعين، قدّم له كرسياً، وضيّفه شوكولاطه من العلبة التي على الطاولة هناك. لقد اهداني إياها احد اولاد العرب في الجيش الاميركي جاءني بمكتوب من البلاد - من لبنان - الله ارسلك الي حتى تقرأ لي المكتوب. هو داخل علبة الشوكولاطه. اسرع بقراءته..»

واردت ان اتمهل في تقديم الحلوى وقراءة الكتاب كي يتسنى للطبيب دراسة العليل. غير ان سليمان استعجلني نزقا واسمعني الفاظاً يبرر احتمال سماعها حرمة المرض وجريمة الحيلة التي كنت احاول ان ادبرها ولكنها لم تخف عليه، اذ ان من طال مرضه ينشأ عنده حس سادس ينذره بكل مؤامرة تحاك حوله.

ورحت اتخبط بقراءة تلك الرسالة وحل رموزها الهيروغليفية فقد خطتها يد قروية خشنة تبغي البلاغة ولا تملك اسبابها. غير اني فهمت منها اخباراً كثيرة اهمها ان الناس في لبنان لم يجوعوا في الحرب العالمية الثانيـــة، ويلي ذلك اخبار القرية من زواج وانتخابات وولادات ومواسم. كنت خلال ذلك اجيل نظري من الرسالة الى وجه مستمعي حتى انتهيت الى «وقـد وصل من الارجنتين خبر وفاة اخيكم يبقى لكم ...»

وسرعان ما ارتفعت ذراعـا المريض وانتشرت اصابعه ثم اشتدت في قبضتين ورفـع برأسه عن المخدة بعنف ثم ارتج رأسه واقعاً الى المخدة، وارتمت ذراعاه وزفر زفرة اخافتني.

وفي لحظة امتدت يد الطبيب الى معصم المريض يتلمس النبض. واهوى باذنـه يستمع الى القلب، وكشف الجفون ثم دار بوجهه نحوي قائلا:

« صديقنا راح . قل ما الذي كنت تقرأه ؟؟ » .

فاخبرته واعتذرت اليه عن بلاهتي ، فقد كان من الواجب ان لا اقرأ موت الأخ . ان ذلك النبأ صدمه فأماته .

« اني آسف يا دكتور ان اكون حرمتك الدراسة . يا لي من ابله . لقد قتلته . او عجلت في موته . »

فابتسم الطبيب ووضع يده على كتفي قائلا : « لا تأسف يا بني . لقد علمت أنا كل ما يجب ان اعلم ، لقد اكتشف سر استمرار الحياة في هذا المريض الذي كان يجب ان يموت منذ عشرين سنة . أنا مثله ومثلك . أنا ابن الجبال . أنا اعرف مدى الحقد والبغضاء عند الجبليين . ان الذي صهر عناصر الحياة في نفسه وجمدها وكهربها وقواها هو الحقد ، فقد كبر عليه ان يموت قبل اخيه ، وحين تحقق من موت عدوه تلاشت تلك القوة الخفية التي نجهلها فانهارت الحياة في هذا الجسد . »

سألت : « اهذه حقيقة علمية ؟ »

– « لا . هي نظرية . ولكن الحقيقة في بعض الاحيان هي ابنة التخمين » .

قلت : « ما دام الامر ليس بالعلمي الصرف ، اذاً فليس من الوقاحة ان ابدي نظريتي . انت يا دكتور تعرف طباع الجبليين في « تنسي » ، ولكن مريضك لبناني وأنا أعرف منك بطباع الجبليين في لبنان . ألم تره كيف اشرأب ورفع ذراعيه وشد قبضتيه ؟ ان سليمان حين علم ان عدوه امسى في الضفة الثانية قفز النهر من جديد ليخنق عدوه واخاه !

الصورتان

لملمت قواي ، بعد تثاؤب كثير ، ودفعت اللحاف عني ، في ذلك الصباح القارس فارتجف جسدي برداً ، ووثبت من سريري اتلفلف بمعطفي متجهاً نحو المطبخ صائحاً « قهوة ! » ثم انحنيت خلف باب المنزل وتناولت جريدة الصباح .

وقبـــل ان اثبت نظارتي لاقرأ الجريدة رحت ارقص من الفرح ، اذ اني بنظرة واحدة القيتها على الصفحة الاولى شعرت ان كل جوارحي استفاقت فرجعت الى غرفـــتي ارتدي ثيابي في عجل متغنياً طروباً .

اذاً فصديقي الاوفى المحامي سامي الأدهم ربح الدعوى الكبرى ، « دعوى دمشق » التي لبثت حديث الاندية والصحف طوال هذه الشهور السبعة .

وفتحت البـــاب قافزاً درجات السلم ورحت اسرع على الرصيف غير آبه لصياح باعـــة الجرائد : « براءة انور العطاس » « اطلاق سراح انور العطاس » اذ كيف استطيع ان اقرأ ونفسي هائجة ؟ لمحة كفتني مؤونة القراءة . فانا اعرف تفاصيل الدعوى من اولها الى آخرها . سهرات عديدة قضيتها مـــع المحامي سامي

الادهم ، نقلب معـاً اوراق القضية ، حتى لقد حفظت مذكرة الاتهام واقوال الشهود . حقول كثيرة من تعليق صحف بيروت ومصر ودمشق قرأتهـا وسامي . وكنت كلما نهضت لانصرف من السهرة ودعني سامي بقوله « لا تخف . كل الادلة تشير الى ان انور العطاس هو القاتل ، وكذلك افادات الشهود . ولكني سأثبت براءته . اقول لك سأثبت براءته ، وان لم افعل مزقت شهادة المحاماة وابتلعتها ، ورجعت الى مهنة ابي — جمّالاً ! »

وفيما انا مسرع رحت افكر بالذي سأقوله لسامي حين ادخل بيته . لن اقبله فهي عادة قذرة - تقبيل الرجل للرجل . ما الذي اقوله له ؟ سأحدو واياه « بيع الجمل واشر بويك » ! او اسميـه « سلطان المحامين » — في يقيـني ان الصحف سبقتني الى هذه الالقـاب . بل اعترف له ان جذلي بفوزه مزدوج ، سببه فرحي لظفر صديقي ، وشعوري باني تغلبت على الحسد الذي كان ينهش نفسي في السنوات الخالية كلما عرفت بنجاح صديق لي او رفيق .

غير ان تأملاتي انقطعت فجأة حين وجدتني امام منزله وعلى الباب جمع غفير .

وكانت تلك البشعة المحبوبة « يمامة » ، خادمة المنزل ، لبقة في استقبال الضيوف والتخلص منهم ، تلح عليهم بالجلوس وتناول القهوة فيما هي تخبرهم ان معلمهـا الاستاذ ترك البيت باكراً الى مكتبه . ثم تتطلع بي فتغمز وتبتسم كانها تقول : « الاستاذ هنا .. صبرك حتى ينصرف هؤلاء فتدخل عليه » .

وحين اقفلت الباب « يمامة » خلف آخر زائر ، اشارت اليّ :

«تفضل. الاستاذ في مكتبه، لماذا لم تتغزل بوجهي في هذا الصباح؟»

قلت لبامة مداعباً: «لو لم تكن الساعة مبكرة في الصباح، لقبلت كل حلقات الجدري في وجنتيك، ولقبلت كذلك هذا الطابع البراق تحت عينك الذي زانت به خدك حبة من حلب».

وفتحت باب المكتب صائحاً: «سامي .. سامي .. الخيل والليل والزعران ...» وذهلت اذ رأيت سامي تراكم على نفسه كومة من فجيعة وراء طاولته وامامه الصحيفة التي قادتني اليه فقلت: «شيء جميل. صورة جميلة هاه؟ انظر لقد سموك (المنقذ) ولكن ما بالك كئيباً؟ ألم يدفعوا اجرة الدعوى؟» وكنت اعلم انه على المال حريص «ام ان الكبد ثار عليك من جديد؟ قلت لك الا تذهب الى دمشق لاستماع الحكم في هذا الطقس و..»

فقاطعني سامي وقال: «اجلس اقصّ عليك.» وفتح جراره وسكب كأسين ..

— «فظاعة» صحت به مشمئزاً «افي مثل هذه الساعة تشرب الوسكي؟». سامي كان من المدمنين.

قال: «اشرب! ان الوسكي خمّروها لمثل هذه الساعة. اشرب!» وافرغ كأسه بين شفتيه دفعة وراح يحدثني:

— «تذكر دفاعي الاخير في دعوى دمشق؟»

— «بفخر واعجاب!»

— «وتذكر كيف استللت من خصمي النائب العام اكاذيبه من بين شفتيه وقذفتها في وجهه ..»

— «اذكرها بكل تفاصيلها.»

- « وتذكر اني كنت متفائلاً بالبراءة منذ الساعة الاولى ؟ »

- « بل واثق . »

- « وامس الاول كان موعد صدور الحكم . اين كنت اول امس ؟ لقد فتشت عليك المدينة شرقاً وغرباً فلم اجدك . واخيراً ركبت سيارتي وحيداً مع سائقها متألماً ان لا يكون معي رفيق. ترى لماذا نخاف الصمت والوحدة ؟ وحين تركنا المدينة نزلت بقلبي الوحشة فحاولت التحدث الى السائق فكان يختصر أجوبته محاولاً ان يفهمني انه غير ولوع بالكلام لا يريد ان يوزع انتباهه بين القيادة والتحدث اليّ .

وجثمت في مقعدي متلفلفاً بعباءتي ونوافذ السيارة مقفلة .

واطلقت بصري في الروابي فاذا هي بيضاء . لا ادري ما الذي يستثيره فينا منظر الثلوج، ولكني اذكر اذ طوفت بنظري ان عضلاتي تفولذت . فانتصبت باسماً واصابتني نشوة ففتحت نافذتي السيارة قليلا انعم بلسعة نسيم الثلوج . وتوثبت الحياة في كل خلية من خلايا نفسي فشعرت ان كل ما بي حي يقظ .

يزعجني شعراء لبنان ، هؤلاء الذين يحاولون وصف سحره . نحن الشعراء انت وانا و« يامة ». نحن الذين نحس بسحر لبنان سكرةً في نفوسنا ولا نحاول ان نفصح عنها .

عرفت ، والسيارة تلف اكواع الطريق بين « عاريا » و« عاليه » ملذة الخلوة ، اذ تقلص ظل البشر عني وسكنت غوغاء الحياة فالنفس نشوى وكل الاشياء جميلة وكل التأملات خلابة . هذه المطية الطيعة الجبارة التي اتبوأها واسخرها عبدةً لراحتي ،

تزفر الدخان الاسود اذ هي تركض بي الى مبتغاي .

تبين لي في تلك الساعة اني اعيش الحياة كاملة واننا نجتـــاز اكثر ايامنا نصف أموات !

وتجاوزنا « عاليه » فانفتح الى يميني واد ، وانفتحت في مخيلتي الف نافذة الى ايام صباي يوم كنت اجوب هـذا الوادي وراء حمار احمله الخضروات ابيعها في المصايف . يحدثونك عن الحرمان ولذة آلامه . لا تصدق . لقد خبرت الحرمان ولذة آلامه واني « أجيّر » لك كل ملذاته لقاء ذرة من لذة الظفر .

ورحنا نلف الاكواع فلما صرنا امام اللوكندة الكبرى في صوفر تطلعت الى البلكون ، عـــلى عادتي ، وابتسمت . انت تعرف انهم يلقبون عائلتنا « بيت ابو بلاطة » اتدري لماذا ؟ كان ابي جمالا وكان جمله هائلا ، نقل بلاطة بلكون لوكندة صوفر الكبرى . وبقي ابي يقص احاديث تلك البلاطـة طوال السنين كيف حملها وكيف قبض اجرتها ليرة انكليزية وكيف .. حتى لقبوه اخيراً بابي بلاطة ولصق بنا هذا النعت . اتعرف لماذا العب « الروليت » في اللوكندة الكبرى ؟ لكي اقول لنفسي اني ارمي على « الاحمر » او « الاسود » في لحظة باكثر مما قبض ابي اجرة على نقله البلاطة على الجمل الجبار . احب المال ولا اقامر بـــه الا في صوفر نكاية بتلك البلاطة . متى صرعت خصمي فاني اتلذذ بأن ادوس وجهه ، الا خسىء الفقر !

وقطع عليّ تأملاتي منظر غلام يلوّح بيده فاستوقفت السائق وفتحت الباب ، فواجهني محيا غلام في نحو الثانيـة عشرة لافـاً

رأسه بزنار صوفي ، وقد برز وجهه احمر فوار العافية ، وشعت الحيوية من عينين سوداوين وسألني بصوت جبلي صريح ، نقي ، مرتفع : « اتسمح لي بالركوب معك الى « ضهر البيدر » يا خواجه ؟»

قلت : « تفضل الى جانبي . » فتأدب وجاس قرب السائق .

قلت مداعبـــاً ، ولعلي - ويا للصغار — كنت مفاخراً : « وكم تدفع لي ؟ » .

اجاب مرتبكاً خجولاً ، بضحكة مصطنعة ، ثم فك ما حول زناره ، وقـــدم لي زوادته : « تفضل لقمة ، لحم ارنب شهي صدته البارحة » .

فأكلت وحقاً كانت اللقمة طيبة شهية . قلت : « وكيف تصطاد الارانب ، ولا ارى معك شيئاً من ادوات الصيد ؟ » قال :

— ليس من الصعب ان تطارد الارنبة على الثلج شرط ان تركض خبباً فرجلاهـــا الاماميتان قصيرتان ، فهي لا تسرع بالركض نزولاً . والبارحـــة فاجأت زوج ارانب قبضت على الذكر منهما . من يدري علي احظى بالانثى في هذا النهار .

من يدري ؟ ! »

قلت : « أذاهب انت لصيد الارانب ؟ »

قال : « لا . انا ابيع الماء للذين يتزحلقون على الثلج . يسمونها « سكي » بالفرنجي . البارحة كان يومي عظيماً . جنيت ثمانين قرشاً وصدت ارنبة ، مع اني لم استطع الوصول الى ضهر البيدر باكراً لان خواجات بيروت لا يسمحون لنا بركوب سياراتهم . اما البوسطات ، و« جيب » الدرك فدائماً تقف لنا . وانت يا خواجه

الى اين انت ذاهب ، من غير شر ؟ »قلت :« اني قاصد الى دمشق وسأجلب لك معي حذاء احمر . » وضحكت . غير ان الغـــلام اضطرب فتطلعت الى قدميه فتحققت ان دعابي كان ثقيلاً . ذلك لان الغلام كان حافياً ظهرت بعض اصابع قدميه من خـــلال جنفيص لف به بعض ساقيه وقدميه .

قلت جاداً :«سارجع نحو الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم، بلى سآتيك بحذاء احمر ، بل ربما توفقت بحذاء عسكري متين» . فاحمر وجهه واجاب :

« وربما انا توفقت بالارنبة الثانية اهديكها . » ثم التفت الى السائق : « قف لي غـير مأمور . انا انزل هنا عند مفرق جبل الكنيسة » .

قلت : «اذاً موعدنا بعد هذا الظهر . عند هذا المفرق . »

فنزل الغلام ولوح بيده صائحاً : « الله يوفقك يا خواجه ! » .

لقد كذبت عليك يا صديقي حين كنت اؤكد لك اني واثق من الفوز بدعوى «انور العطاس» . لم اتأكد من نجاحي بالدعوى الا حين سمعت دعاء ذلك الغلام القروي .

ومثلنا امام القضاة والقاعة ملأى ، والناس ملأوا اروقـــة البناية . وبدأت المظاهرة حين سمعوا لفظـة « براءة » . يا لتلك الساعات لقد قطعوا خدي تقبيـلاً . وحملوني الى دار العطاس ، وهناك الصخب والاغاني والزغاريد والموائد العامرة . موائـــد دمشق من لم يسمع بهـا . الخطب والقصائد . وفي تلك الغوغاء والضيافة ، والافراح ، رحت أشرب من المديح وانتفخ بالاطراء

واغبّ الخمور حتى ثملت ونمت سكران .

وقد رجعت بعد ظهر أمس . »

وحمل الصحيفة بيديه الاثنتين واشار الى صورة ثانية . « انظر انا المنقذ . انظر » ، واشار الى اسفل الصفحة فقرأت « هذا الغلام دنق برداً على مفرق جبل الكنيسة في ضهر البيدر ، وقد كشفت جثته جرافة الثلج » .

وحدقت بالصورة فاذا غلام مقزز العينين وقد تقلصت قسمات وجهه المذعور وفي يمينه .... ارنبة .

« انا المنقذ » صاح بي المحامي وتقززت عيناه ، وذعر وجهه .

ملأت لصاحبي ولي كأسين من الوسكي وقلت : « اشرب . اشرب . ان الوسكي لمثل هذه الساعة خمّروها ! » .

قِصّة غير عَاديّة

هكذا وقفت في ساحة البرج من بيروت اشد على ورقة الخمسين ليرة في قعر جيبي وادير نظري في الناس يروعني هذا الغنى المفاجيء .

وكان بصري ينزلق عن الجماهير المتدافعة وقوافل السيارات فلا ارى واضحاً الا تلك اللافتة على الطابق الثالث من البناية المواجهة تحمل : « السراب – مجلة ادبية اسبوعية . » وكأنما كان يخالج نفسي امل خفي كامن ان ارى صاحب المجلة يطل من النافذة ويوميء اليّ ان اعود اليه فيسترد مني هذه الخمسين وينتزع من نفسي الذعر والقلق والحيرة التي غمرتني عندما وكل الي تلك المهمة الغامضة بعد أن وقفت ذلك الصباح في مكتبه اطلب عملاً صحفياً وعرضت عليه بعض مقالاتي المدرسية وشيئاً من شعري وشهادة الليسانس في الادب العربي ، فلم يلبث ان نفحني بهذه الثروة التي لم اكن اعرف ان في الدنيا احداً يملكها ، ثم قال لي بصوت فيه نبرة انتهار : « هذا معاش الاسبوع الاول . لا تظنني غبياً ، فاني مقامر داهية . فاما ان اخسر هذه الليرات الخمسين او اكسب مخبراً . هل تحفظ السر ؟ ليس في هذا البلد مخبر صحفي واحد . هل تلعب

الروليت ؟ لئن كنت تفعل فلا تغامر بفلوسك الا على خانة الصفر. هل قرأت المتنبي وهل تذكر ما قاله عن طعم الموت؟ لئن استشهدت بذلك البيت من شعره قتلتك ! ما بالك شاخصاً الي ؟ » ثم رفسني بقوله : « اريد قصة غير عادية قبل يوم الخميس ، افهمت ؟!» ولمحت بعيني الخلفية الباب ورائي ينصفق بعنف . غير ان سرعة خطواتي سابقت سرعة الصوت فلم اسمع طعقة انغلاقه ، وانحدرت من ذلك المكتب هارباً .

وها انا منتصب على ساحة البرج مذعور احس اني خدعت صاحب « السراب » اذ فصلته عن بعض ماله . ويدور في خاطري شك ان يكون ذلك الصحفي قد اراد الهزء بي فـــاعطاني ورقة مزورة . وتحدثني نفسي ان اهرع الى اول صيرفي القاه لاتثبت من صحة الورقة ،غير اني خشيت ان اقع في يد البوليس إن ثبت زيفها.

وبدأ الذعر ينقشع عن نفسي ليدب فيها الخوف ويدفع بقدمي الى الفرار، فتعلقت باول حافلة مرت بي. وكنت وانا متشبث بها ادفع حديدها بصدري كمن يحاول ان يعينها على الاسراع . وكنا كلما ابتعدنا عن ساحة البرج هدأ روعي حتى وقف القطار بعد ربع ساعة وطرق سمعي صوت المأمور يصيح : « محطة الدرعوني » .

قفزت من الترام ومشيت اتبختر نحو القصر – قصر الدرعوني – بخطى الواثق من نفسه ، كملاكم يمشي الى الحلبة لينازل خصماً لا شك في قهره . وتطلعت الى ذلك الصرح الذي بدا امامي شامخاً يلمع رخامه الابيض تحت وهج الشمس وتحرس حديقته اشجار باسقة تكاد تحجب أعمدته الممشوقة . فرأيتني انظر اليه من عل

احس ان شعوراً جارفاً قد تملك جسدي فاذا كل عضلاته متكتلة، مشدودة ،واشعر ان ذهني مرهف صاف وان عينيّ كحدقتي منظار مقلوب تريني الاشياء صغيرة ، نائية ، واضحة .

وومضت في خاطري فكرة بلورها التجلي وكهربها الوحي . ان القصر فريستي واني النمر امشي اليه . وانحنى الحارس في بوابة القصر من غير ان يسألني من انا وما اريد ، فقد كان في وجهي ومشيتي ما يوحي الرهبة والمهابة . فولجت قصر الدرعوني حيث كمنت القصة غير العادية تترقب وصولي ، عذراء حالمة انا اميرهـا الفتان . ذلك هو الحس الذي غمرني وفاض من اغوار نفسي .

ورحت استعرض حياة صاحب القصر اذ انا مقبل عليه .شفيق الدرعوني ابن المرحوم يوسف الدرعوني . اديب ابن اديب . كان يوسف الاب من ادباء العهد الفائت بـــل كبير ادبائه . وكانت الصحف كلما ذكرته ، وكثيراً ما تفعل ، وصفته بانه «يملك ناصيتي الشعر والنثر» . وكانت له على كل منبر وقفة ،وفي كل حفلة كلام . وشب شفيق على ادب ابيه ، ثم بزه . وبعد ان انهى دروسه بتفوق في كليتي بيروت قصد الى فرنسا فاستقر فيها وعاش عشرين عاماً يكتب ويؤلف بالفرنسية ، فراجت كتبه ، ورسخت قدمـه في دنيا القلم ، الى ان بلغ الذروة في العام الفائت ، حين توجت حياته الادبية جائزة نوبل العالمية ، جاءته عـــلى موعد ، وحملت رسمه وصورته الى سائر انحاء الدنيا . وطبعاً لم يكن شفيق الدرعوني قد احتفظ باسمه العربي بل جعل منه « شارل دارن » . وكذلك كان من الطبيعي ان يتزوج من فتاة فرنسية ثم يعود بها الى بيروت ،

ويبتني هذا القصر .

لقد شيد هذا القصر بعد المأساة الشهيرة التي صيرت اسم شفيق الدرعوني او شارل دارن خرقة ملوثة قذرة لا تصلح لان تنظف بها النعال . وامسى ذلك الاديب العبقري العالمي رمزاً للؤم والجحود والجريمة ، فزاوجت عبارات المادحين المعجبين بعبقريته سباب الشاتمين الناهشين في خلقه . وطالما سمعت المارة ، اذ يحاذون قصره ، يشيحون بنظرهم متمتمين : « اعوذ بالله من الشيطان الرجيم » او يرسمون علامة الصليب . واما المبتذل منهم فيقصف جدار القصر ببصقة في اعقابها شتيمة .

رحت اصعد درجات القصر كاني صاحبه ، وادركت اذ ذاك السر في القوة الخفية التي تحرك المقاتل فيهجم على الدبابة ، والطيار فيقذف بطائرته لينسحق بها على مدرعة العدو . ولو لم اكن مسيراً بتيار خفي من وحي ملهم لكنت الوقاحة مجسدة اذ انا ادخل قصر شارل دارن الاديب العالمي العظيم من غير سابق معرفة او موعد او اذن ولسبب لا ادريه .

فلما غرقت في مقعد وثير من مقاعد البهو الفخم بدأت اصحو من سكرتي ، وحاولت ان اتعلق بغيوم اوهامي مخافة ان ينقشع عن نفسي ضباب الوحي . وتحسست جيوبي اتلمس فيها سيكارة فلم اجد غير ورقة الخمسين . وحانت مني التفاتة فاذا صندوق سيكار هافانا فخم ، فتناولت واحداً منه اولعته ورحت اعبث به بين شفتي ولساني واحاول ان استعيد نشوتي وجرأتي واقدامي ، فاجفاني صوت امرأة من داخل القصر يزعق زعقة طير علق عـــلى الدبق

يخالطه صوت اجش في لهجة المستعطف الحزين . وفجأة خطرت بالبهو طوفة من انوثة معطرة ، ملفلفة في غلالة من حرير ، مزدانة وهاجة في شموس من جواهر . فلمـــا ان حاذتني سحقتني بنظرة هازئة محتقرة وصاحت : «أو !..» ثم كنستني بنظرة ثانية وتابعت سيرها حتى بلغت الباب ، فظهر صاحب الصوت الاجش يخاطبها بالفرنسية : « شيري ! الم تنسي شيئاً ؟ » فانكفأت اليه مسرعة وقالت : « لا تشوه زينتي بقبلتك » وارخت اليه يدها فقبلها ثم ماشاها بضع خطوات حتى اذا بلغا مقعدي تطلعت بي من جديد ، وهذه المرة ضحكت وصاحت : « اوه !.. » وغيّبها الباب .

اما انا فكنت واقفاً في مكاني ثائراً تعصف في جنبات نفسي شتى الاحاسيس ، احدق الى شفيق الدرعوني او شارل دارن وقد عرفته من رسومه الكثيرة ، ومن ذلك الوجه العظمي الاسمر القاسي المشوب بصفرة باريس ، ومن تينك العينين الروّاغتين وذلك المونوكل المركز على عينه اليسرى .

وظللنا واقفين نتمايز برهة خلتها دهراً . وتفرست بـه فايقنت انه ان نطق فليجيب على السفنكس دون سواه . وانهارت جرأتي المصطنعة فاستعنت على طرد مخاوفي بالكلام وقلت بصوت لم يخفَ ارتعاشه : « انا مخبر مجلة السراب . » فقاسني بنظره من جديد ، واردفت « وبيننا شيء مشترك ، فكلانا حامل قلم . » وكأنما لسعته شرارة من نرفزة فراح ينقل نظره بين فمي وهو يقذف من فترة الى فترة حمم السيكار وبين صندوق الهـافـانا ، ثم ابتسم ابتسامة صفراء وقال : « وبيننا شيء مشترك اهم ، فكلانا حامل سيكار . »

وتطلع بي وقهقه حتى سقط المونوكل عن عينه فتركه يتدلى فكأنما انحسر عنه القناع ، فاذا الوجه القاسي قد امسى وديعاً ومظاهر الخشونة قد نعمت. وتأبطت جائزة نوبل ذراعي : — « تعال ندخل الستوديو » . فمشينا حتى بلغنا غرفة رحبة استراحت الى حيطانها صفوف الكتب وانتثرت على طاولاتها عشرات المجلات والجرائد، وهمدت في ارضها السجاجيد وجلود النمورة . ودعاني الى الجلوس وخلع عنه روبه فاذا هو في قميصه وكلسونه من غير بيجاما او قميص نوم . ثم جثم الى طاولة عليها صينية من فضة فادهشني ان الملعقة والسكين والشوكة لا تزال نظيفة على الرغم من ان رغيف الخبز لم يبق منه إلا نصفه ، وان صحن اللبنة كاد ان يفرغ ، ثم انحنى شفيق الدرعوني فتناول من خلف مقعد حريري ابريق فخار فشرب منه على عادة القرويين ، وبعد ان مسح فمه بكفه سألني متكلفاً القسوة :

— « والآن ماذا تريد ؟ »

— « انا مخبر . . »

— « . . . مجلة السراب . فهمنا . ولكن ماذا تريد ؟ حديثاً ؟ لقد نشرتم عني الف حديث من غير ان تكلموني . »

قلت : « جئت لأنتزع منك قصة — قصة غير عادية . »

وغاب شارل دارن عني هنيهة واختفى في هدأة من سكون . ولم يبق منه امامي الا جسده. وصوّب الي عينين توهمت ان قد فارقهما النظر . ثم استفاق فجأة فسمعته يقول بصوت كصوت الوسيط ، فكأنه ينقل الي حديثاً من عالم الاموات . وتدفق بكلام خيّل

الي انه خطاب وعاه منذ سنين ليلقيه علي في لحظة من طغيان الروح :

« غريب امر هذه الحياة ما أكثر الغازها ! حينما طلع عليّ هذا الصباح استفقت كأني على موعد معك . فانا في انتظارك . كنت كلما وقف الترام اتطلع من النافذة علني اراك ، حتى ظهرت اخيراً . سانفحك بقصة غير عادية ، ولعلك ستفهم عما قريب الحافز الذي يدعوني الى انتظارك وقصها عليك . اما انا فلن استطيع تفهم هذه الامور . كل شيء سينجلي لك ، وسيبقى لغزاً عليّ . بلى ! انا الاديب اللئيم الجحود . أطلي جدار قصري بالدهان البراق كل يوم ، ولكن بصاق الناس يلوثه باسرع مما إجلوه . اخالك تعرف عن اموري ما يعرفه الناس . انت تعرف اني ابن يوسف الدرعوني ، المعلم يوسف الدرعوني ، صاحب المدرسة الوطنية في في قرية « قلعة البزور » .

لم اعرف امي فقد ماتت في طفولتي ولكن ابي كان لي ، ولا يزال ، كل ما في الحياة من ابوة وامومة واخوة . طفوت في هذه الدنيا على موجة من حنانه . اني اذكر كل شيء عنه . من يوم كان يبدل ثيابي ويعلمني الصلاة قبل النوم وعند النهوض من الفراش . اذكر كيف كنت اضع يدي الصغيرة في قبضته الضخمة ونسير معاً في سوق البلدة فارى الناس ينهضون مسلمين خاشعين . اذكر كيف كان يعلمني فروض المدرسية ، ويفيض عليّ من نصائحه . أول صحن بوظة اكلته ناولني اياه ابي . اول شريط سينما رأيته برفقة ابي . واول مرت علوت الحمار فارسا كانت يد ابي تساند ظهري . كنت اراه خطيباً في الناس فيهزني الاعجاب

وكان يقول لي انه يطمح ان يراني يوماً خطيباً وهو في صف المستمعين . وحين وصلت الجريدة من بيروت تحمل صورته ومقالته ، اطلعني عليها وقال لي بلهجة الواثق انه سيأتي يوم يرى الناس فيه صورة شفيق الدرعوني ابن المعلم يوسف . وكان لابي في المدرسة زميل هو الشيخ فارس معلم الحساب والجغرافيا ، وبين ابي وبين الشيخ فارس – عمي فارس كنت اناديه – اخوّة جوهرتها السنون . كنت مهراً يروّض ليصبح جواد سباق يملكه المعلم يوسف ، والشيخ فارس . وقد كنت فخوراً بالاثنين . على ان حبي لابي عمقَ وتبلور مع السنين ، وحين تخرجت من كلية بيروت احرزت اول انتصاراتي في حفلة توزيع الشهادات اذ وقفت القي خطابي فافتتحته بقولي : « ابي ، عمي فارس – سيداتي سادتي ! » بلى كنت دائماً افتخر بالاديب الكبير يوسف الدرعوني.

وبعد ان مرت عليّ سنوات في فرنسا وبدأت المجلات العالمية تنشر انتاجي الادبي وضح لي ان الحياة كلها كانت ابي ، وان الافكار التي سطرتها كانت مستوحاة من ابي ، وكذلك الطرف والملح ، وكل ما اقول صدى لما سمعت . وكنت كلما طالت غربتي زاد اعجابي بادب والدي ، ورسخ في معتقدي انه لو اعطي الافصاحَ عن افكاره بلغة اجنبية لبزت بضاعته بضاعتي في اسواق الدنيا . لذلك كان فرحي عظيماً حين كتب اليّ الى باريس يقول انه فرغ من تأليف رواية سماها « البحيرة المشتعلة » واستبقاها حتى اعود فاكتب له مقدمتها واشرف على نشرها .

وكان على عادته في كل مكتوب يستحثني على الرجوع الى

لبنان ، ولا تخلو رسالة من حاشية للعم فارس لا تتغير ، فيهـــا تأنيب على عقوقي وشك في عقلي .

اما انا فكنت قد قاولت نفسي على ان لا ارجع الى بيروت الا وفي يدي جائزة نوبل . ولقد ظفرت بها وانتزعتها منهم انتزاعاً . قنصتها قنصاً . افهمت ؟. اقرأها هنا في ذلك الاطار على الحائط . وفيما انا اقول لنفسي : « انا اديب الدنيا » جاءني نعي ابي .

احسست ان المهر الذي روضه المعلم يوسف قد ركض شوط الحياة وفاز ، لكن الهرم انهلّ عليّ في لحظة واحدة فكأن قوسي قدمي قد تقصفت فانا سطيح القدمين لا استطيع حراكاً . بل صار كل ما ابتغيه من دنياي ان ارجع الى موطني فاقرأ « البحيرة المشتعلة » واكتب مقدمتها واعسعس في اوراق ابي وانشرها على الناس .

نسيت حكاية . فقد تزوجت في فرنسا هذه الاوزة المعطرة . اسمها مرغريت . ولعلهـــا كانت من اسباب تباطؤ خطواتي . كيف ترجمتم لفظة ترايلور « Trailer » تلك العربة التي تقطرهـــا السيارة ؟ لم توفقوا الى لفظة بعد ؟ لماذا لا تسمونها طريلة ؟ اول ابريق فخار اكتشفته الاوزة في غرفتي حطمته . أووو ! أووو ! والف أووو ! الله يحرق الفرنج . مسكين العم فارس ، حين اطل عليّ حسبته يتوكأ في الحياة على عكاز من عصاه وآخر من اوراق ابي التي جاءني بها وبينها « البحيرة المشتعلة » . كان من الواضح ان وجهي الحليق ونظارتي والكلمات الفرنسية التي يتبرج بها حديثي لم تعجبه . هو الذي سمى مرغريت الاوزة .

وخلوت في غرفتي باوراق ابي . اقول لك اني حين رأيت ذلك

الخط الذي اعرف ، والحبر البنفسجي ، وقلم الغزار ، وعبقت بانفي رائحة الحبر ، كنت كأني فتحت قبر أبي ونظرت الى جثته.

لا ادري كم طالت خلوتي بابي في ذلك اليوم الماطر فلم استفق الا وانا واقف على النافـــذة . ايقظتني صفعة من ريح ومطر . فرأيت الشيخ فارس مقبلاً نحوي وهو لا يراني . وكان المطر ينهمر عليه فلا يكترث ، بل كان في وجهه شعاع يقظة من يوشك ان يموت . وعدت من النافـــذة نحو اوراق ابي انتحب واشد شعري بانامليَ المرتجفة : « ربي ! ليس في هذه الاوراق الا العادي المبتذل . سخافات . كلام منمق زوقه يراع منشيء لينه بقي اميياً . وفتحت الباب قليلاً فسمعت عصا الشيخ فارس تقرع الارض . عندها بدأت عملي . فلما اطل عليّ العم فارس كانت اوراق المعلم يوسف الدرعوني بحيرة مشتعلة . فسكن عشير ابي لحظة ثم جحظت عيناه واجفل كأنما رأى تحت قدميه قتيلاً لا يزال يتخبط بدمه :

— «ماذا تفعل ؟ » قلت : «عمي فارس . عمي . عفوك » اني احرق الاوراق — اوراق ابي . اقول لك لئن نشرت هـذه الصحائف ليكسفنّ اسمه اسمي . ان كل ما كتبته في حيـــاتي مستمد من هذه الاوراق . اني نسخة زائفة مقلدة ، وهذا هو الاصل . بربك لا تفضحني فانا حي اريد ان اعيش وابي ميت لا تبعثه الشهرة . عمي فارس .. » ولم أُنهِ عبارتي فقد بترتها عصاه التي اهوت على رأسي ، هنا . اترى هـــذا الجرح ؟ انت لا تراه . والناس الذين يبصقون على حائط قصري لا يرونه . اما انا فاتحسسه كل لحظة فيؤلمني . لؤمي وعقوقي وجحودي ! هل فهمتها الان وعرفت

سببها ؟ هل انت قادر على ادراكها ؟ انا الاديب العالمي الحسود . قتلت جثة ابي . فتكت به كي لا يزعج خلوده خلودي وتكسف شمسه نجمتي الساطعة ! .»

وغاب عني شارل دارن هنيهة وبقي جسده في حضرتي وسمعته يقول : « بلى الحياة كلها الغاز . لماذا انتظرتك منذ الصباح ؟ لماذا دعوتك الى خلوتي ؟ لماذا حدثتك بقصتي ؟ وانت ؟ وانا ؟ احقيقة انت وانا ام خيال ؟ » ثم رجع اليّ واستيقظ وكبس على زر كهربائي فجاء بعض الخدم فانتهرهم بقوله ، مشيراً اليّ : « من هذا الصعلوك ؟ ولماذا اذنتم له بالدخول ؟» وتلفلف ببرنسه الحريري غاضباً وركز مونوكله على عينيه بينما كان الخدم يدفعونني ويلقون بي خارج القصر .

ومثلت ثانيـــة امام صاحب « السراب » منهكاً مبلبلاً استمع اليه ينفث في وجهي : «اقول لك ان الحظ بوالينا . سر المهنة ان ترشو الخدم . وقد تلفن اليّ الخادم الآن يقول ان شفيق الدرعوني العظيم قد انتحر . طر الى القصر . اسم الخادم « توما ». هناك قصة عظيمة غير عادية . استفهم سبب انتحاره . آتني بشيء من الحقائق وانا املّح وازركش . ما بالك مسمراً في وجهي كانك حامل سطلي ماء ؟ » .

فبلعت ريقي ، ودوى في رأسي هاجس كصيحة الضمير : قصة غير عادية ؟ بلى ! شرط ان يمثّل قلمي بالجثتين .

فالتفت الى صاحب «السراب» وشمخت : «هذه عريضة استعفائي.» ودفعت اليه بورقة الخمسين .

القَدَم الناطِقة

الذين اعجبهم من الفتى خطار فمه الباسم وعيناه الضاحكتان لم يروا وجهه في الظلام .

تلك البشاشة التي تطفو على وجهه من الفجر الى اول الليل اذ هو يلبي نداء سيده ناصيف بك ، نشيطاً طائعاً خفيف القدمين ، لم تكن على محياه حين ينبطح على فراشه وتتشابك اصابع يديه تحت رأسه ويدير عينين محمومتين في عتمة غرفته ثم يصوب بهما نحو سقف البيت فكأنه يرى خلاله الفضاء الفسيح ، والنجوم تتألق فتثير في نفسه الغمار والطموح .

ولكن اين هو من الطموح والعظمة ؟

خطار شاب نكرة بل هو اقل من نكرة . هو خادم ، اجير ، في بيت ناصيف بك الجيذور .

وما كانت العينان وحدهما من جسد خطار هما اللتين تتحركان فحسب ، بل هو كان يصرف باسنانه ، حيناً بعد حين ، او يشد بقدميه فتتكتل عضلات ساقيه الهائلة . وكثيراً ما زفر ، او دمدم ، او رفع صوته بحديث حتى لقد جاءه ناصيف بك ذات ليلة مذعوراً يسأله ما الخبر وهل هو يقاتل شخصاً ما في جوف

ذلك الابل .

فاجاب خطار : « لا يا سيدي كنت اكلم نفسي ! »

ولو ان ناصيف بك علم بالذي يتكلم به اجيره لما انصرف مبتسما.

لو ان للأفكار رائحة لكان الذي يدور برأس خطار غــازاً خناقاً ، او ان لها صوتاً لاصمّ تفجرها الآذان .

« من هذا البك ناصيف ؟ من اين له هذا اللقب ؟ من زعم ان آل الجيذور بكوات ؟ انا صاحب اللقب الصحيح . انا من عائلة شنديب . انا الشيخ خطار شنديب . اجدادي حكموا هذه القطعة من لبنان في زمن الامير فخر الدين. ومن اجدادهم الشاعر هيذمة الشنديبي ، وقد ورد ذكره في كتب العرب حين دخل على الخليفة في دمشق ومدحه بقصيدة . وها ان عشيرتي انقرضت إلاّ ي ، وها انا اليتيم الفقير خادم حقير في دار هذا المتزعم البخيل . ان صفق هرعت اليـه ، وان امرني اطعت . كلما ناداني « يا خطار » اشعر انه يبصق اسمي محقراً مزدهياً انه يلفظه من غير لقب .

« يا خطار ! قهوة للضيوف ، اقطف فاكهة البستان ، اعلف الحمار ، ارع البقرة ، اخدم على المائدة . اوصل هــذا المكتوب لسعادة القائمقام . الحصان ، هل سقيت الحصان ؟ » ها . ها . اي حصان ؟ ! هذا مثل « البك » ناصيف يحمل لقباً مزيفاً . كديش صار حصانــاً ، وجيذور اصبح بيكا . وابن الشنديب ، الشيخ ، امسى خادماً . ويا ليت خطاراً كان خادماً فقط ، بل هو كذلك وصيفة ، فلقد كان من بعض واجباته ان يحمل الطفـل « كامل » وعمره سنوات خمس ويلاعبه ويغني له يا كا . .مل يا كمّــووول !

وحقاً ان العناية بالطفل كامل لم يكن مصدرها امراً من ابيه ناصيف بك ، بل من زوجة البك بهيجة - الست ام كامل - هي التي كانت تأمر الخادم بان يتعهد الطفل بالعناية فينتقل من ذراعيها الى ذراعيه . آ . . الست بهيجة ، ما اشد بياض زنديها ، واطول اهدابها السوداء ، وما اعنف عبق الطيب يعصف بانف خطار اذ هو يتناول منها الطفل . وهنا تشتعل نار شهوته فيرتعش بدنه ، وترتجف دمدمته ، ويبلع بريقه الجاف ، ويتقلب يميناً ويساراً ، ويحاول ان يقنع نفسه ان في اقصى عيني الست بهيجة دعوة لغرام ، فيطول سهده ، وتتوتر اعصابه ، ويجمح خياله . ثم يغوص في غوغاء من الصور والافكار : اثواب الست بهيجة الحميمة . ناصيف بك يتقدم اهل القرية في مأتم . جده الشاعر الشنديبي يلقي قصيدة بين يدي امير المؤمنين . القصر القرميدي الذي بناه مغترب عاد من الارجنتين حديثاً . . .

وينساب الى نوم قلق تزخر فيه الاحلام . حتى اذا ايقظه صوت البك في الفجر يأمر بالقهوة ، نهض خطار فارتدى اثواب النهار ولبس معها وجهه الباش .

ولم تكن حياة الخادم الشيخ سلسلة آلام وخيبات بل كان يسعده منها ان بعض اهل القرية يعترفون بعلو نسبه فينادونه بالشيخ ، وكثيراً ما ردوا الى صينيته فناجين القهوة الفارغة داعين له بطول العمر ، راجين ان يشربوا القهوة « في عرس جنابك » .

وكرّت الايام فتحجرت النقمة بغضاء . وكان من اسبابها ان اجرة الخادم بقيت مبهمة لم تحدد وانه كلما طالب سيده بمعاشه سمع

خطاباً ، وعظة ، ووعوداً غامضة ، وشكوى من محل المواسم وباهظ النفقات .

وماذا كان في وسع خطار ان يفعل ؟ اينزل الى بيروت فيطلب الرزق في مدينة لا تعرف قدر المشايخ المتحدرين من سلالة شعراء الخلفاء ؟ ام ينصرف الى عمل يدوي عند احد العامة وهذا مستحيل ؟ لئن لم يكن ناصيف بيكا حقيقياً فان منزله بيت زعامة على الاقل ، وبين رواده من يوقرون الشيخ فينادونه بلقبه ولو كان صاحب اللقب خادماً وضيعاً .

وذات ليلة ، اذ عاد خطار من الحقل حاملاً حطباً ، رأى البيت مظلماً ، الا غرفة البك يلمع خلال نوافذها المقفلة بصيص نور ضئيل . فثار فضوله ، وخلع حذاءه ، وتقدم يتلصص من خصاص الباب فاذا به يبصر بسيده وزوجته يعدان نقوداً ذهبية خالها ملايين ، وسمع رنينها فحسبها نفيراً يدعوه الى امر عظيم غامض ، فتوثبت عناصر نفسه وتفولذت عضلاته وهمّ بخلع الباب ، غير انه جمد مكانه وثاب الى رشده فانصرف بخطى صامتة .

« اذاً فناصيف بك غني يكتنز الذهب . ماذا تنتظر من ابن السوقة الا ان يدّخر ، ويحتال حتى لا يدفع معاش خادمه . ابن الجيذور لم يخلق للمكرمات . بنو شنديب في ايام عزهم كانت بيوتهم مضافات ، واملاكهم املاكاً للناس اجمعين . مشايخ شنديب انفقوا . بذخوا . لم يقفلوا النوافذ ليعدوا في الليل ذهبياتهم . لئن جاد عليّ الدهر بالغنى فسيرى الناس كيف انثر الذهب . آ . . خ . . تفوه ! » ...

واستفاق خطار الساخط الى مظاهر ثانية من مظاهر بخل البيك : السجادة العجمية التي احتفظ بها في زاوية الصالون بدلاً من ان يمدها في ارضه ، الثريا ذات القناديل الستة التي لم يُشعل انوارها ، الطبنجة اللماعة الحبلى بالبارود والرصاص التي لم يطلقها قط !

***

في صباح اليوم التالي ظهرت على محيا الفتى خطار لاول مرة همامة بعبوس . وحين سألته الست بهيجة ان يلاعب الطفل كامل قاده بشيء من العنف وانصرف به بعيداً . ولم تنقض دقائق والا سمع اهل البيت زعقة الطفل مذعوراً متألماً فهرعوا اليه وبين صياحه وألمه واحتجاجه افهمهم ان خطاراً قرص مؤخرته . اما خطار فانكر وادعى ان يده ارتطمت في قفا الطفل عن غير قصد.

منذ ذلك الحين نفر كامل من الخادم وكان كلما التقى به ، لمس الطفل مؤخرته وصاح مذعوراً راكضاً القهقرى .

اما خطار فأفرحه انه تخلص من ملاعبة الصغير ، وعاد الى نفسه شيء من الكرامة اذ انقطع عن القيام بوظيفة الوصيفة .

بعد تلك الحادثة لم تعد احلام خطار غوغاء من ألواح وافكار ، ولم يعد يحلم نائماً بل كان يقعد في فراشه يحدث نفسه : « ما عساي افعل فأرفس بلبطة واحدة متاعب الحياة فتنهزم مني مذعورة صارخة ، كما تخلصت من الصغير بقرصة واحدة ؟ » .

***

كل ما يحدث في القرية البنانية يثير فضول سكانها : وصول قافلة جمال يكهرب الضيعة ، وكذلك ظهور قطيع من الغنم .

حين يضرب في اطراف القرية سرب من النوَر ، ذلك حدث . ولقد كانت زلزلةً تلك الرجفة التي هزت قلوب القرويين حين عرفوا ان ناصيف بك ذبيح في فراشه ، وصندوقه مخلوع ، وخادمه الشيخ خطار مختفٍ .

***

هكذا تقلصت آفاق تلك الارملة ، الست بهيجة ، الى كتلة من حياة تعبدها وتخدمها ، وتربيها وتحنو عليها ، اسمها كامل .

ولقد انهارت عن بيت البيك زعامته وارفض سماره ، وعشعش الفقر حيث كان الذهب خبيئاً ، وراحت ام كامل تحتال على العيش بالتقتير على نفسها وبيتها . غير انها لم تحرم وحيدها من اسباب النعمة ، فكان ابداً انيقاً في ملابسه ، كثير الدمى والنقود . وحين انهى دروسه في مدرسة القرية ارسلت به الى الكلية في بيروت ، ثم الى الجامعة حيث لمع اسمه كتلميذ نابغ في علم النفس . وعندما تلقى الشهادة العليا اصرّ على امه ان تأذن له بالسفر الى انكلترا للتخصص فيها ، ففعلت مرغمة ولم يؤسفها اضطرارها لبيع آخر شجرة زيتون تملكها بقدر ما آلمها فراق ابنها سنواتٍ اربعاً . « بُني ماذا تبغي بعد من العلوم ؟ وفي يدك الشهادة العليا من الجامعة الكبرى في بيروت ؟ »

وعاد كامل – الدكتور كامل الجيذور – من اوروبا استاذا محترما رزينا كثيف النظارتين ، منحني القامة قليلا . وكان خلال العطلة الصيفية يعيش في شبه عزلة عن القرية . فلقد احتمى خلال طفولته وراء فسطان امه ، وكذلك في رجولته وضع بينه وبين

بيئته حجابا من ثقافة .

وان من يعتزل الناس في القرى يمسي موضوع احاديثهم ومرمى هزئهم . فأخذ القرويون يتضاحكون فيما بينهم من هذا « الدكتور » الذي لا يعرف الطب ، ويروون الاقاصيص عن ذهوله، ويقولون مقهقهين ان المفكرين من البشر إما أرادوا شحذ الذهن حكوا الرأس باليد . أما الدكتور الموقر فهو حين يعمق تفكيره ويتعمد استثارة قواه العقلية يمّد يده فيحك قفاه .

ذلك ان عادةً استعبدت كامل من ايام طفولته ، فيده كثيرا ما تتلمس مؤخرته ، لسبب خفي على الذين لا يذكرون حادثة الشيخ خطار والطفل كامل .

ولكن الدكتور لم يسمع السخرية بل كان يسعده في حياته انه عالم سيكولوجي مرموق . واعتاض عن لذة غموض طريقه في الحياة بانه اصبح استاذا في الجامعة الكبرى في بيروت وانه إن فاته الغمار في معترك الدنيا، فان في العلم الذي يعالجه، من عناصر التحدي ما يبعث في النفس نشوة الاكتشاف وسكرة التفهم .

ولقد كان من حق الاستاذ ، وقد اصاب النجاح ، ان ينبسط محياه . غير انه كان على عكس ذلك مقطب الحاجبين ، في صوته نبرة النقمة على شيء .. وكان يحب امه ويرفه عنها ويطيبها . غير انه حمل من طفولته آلام تفجعها على ابيه ولعنتها لقاتله. فلم يمر عليه يوم لم يسمعها فيه تدعو الله ان ينتقم من المجرم خطار، ويذيقه مرارة الحياة وعقاب جهنم . لعنات رددتها كلما منيت بالحرمان ، وكلما اعترضتها المصاعب .

غير ان هذه اللعنات لم تؤذ خطارا ولم تصل الى اذنيه . ومن اين له ان يسمعها وقد شاخ في اقاصي البرازيل ينعم بتجارة واسعة في «البر» البعيد على ضفة نهر الامازون حيث يبيع الزنوج ويشتري منهم وفيما هو يتلقف منتوجاتهم الريفية ، ويدفع اليهم بمصنوعات المدنية ، يعلق في يديه ما يسمونه ربحا ، ضَخُمَ على ممر السنين فاذا هو ، بعد حوالى ثلث قرن ، ثروة ان عددتها باي اصناف العملة في الدنيا وجدتها هائلة .

يمر على المغترب في مهجره فترة قد تكون سنوات ينسى فيها اهله وبلاده ، هي مرحلة الكفاح الاولى حين يغفل عن ماضيه بشؤون حاضره ، غير ملتفت الى ماوراءه لاشتغاله بالعراك للوصول الى هدفه فينسى من اين اتى ، واين هم احباؤه وكيف هم . فاذا تطلع الى المرآة في الصباح فليحلق ذقنه لا ليفحص وجهه أتجعد ؟ ويسرح شعره فلا يرى ان قد علقت في المشط شعرات بيضاء .

ويستمر المغترب في العراك والسعي ، وفي لحظة ما ، ولسبب لا ندريه ، يقف فجأة ويدير عينيه فيما حوله كأنه يرى بيئته لاول مرة فيكتشف ان هؤلاء الناس الذين يعايشهم اغراب ممقوتون ، ويرهف اذنيه فاذا اللغة التي يتكلمها هو ويسمعها من سواه ليلا نهارا خليط من اصوات نابية ، فيصيح بنفسه اين انا ؟ ثم ينهار ذلك السد الذي بناه بينه وبين ماضيه فيتدفق النور فلا يرى المغترب في امسه الا الجميل والحبيب والشهي . ويثور الحنين ، ويتوهج الحرمان ، فتمسي رغبته في العودة الى بلاده هَوَساً ، وتزدوج حياته فيعيش في اللاواعية مستعرضا امام بصره كل وجه

حبيب ، ناشقا كل عبير زهرة شمها ، سائرا في كل درب مشاها ، مصغيا الى كل صوت سمعه تتوثب اعصابه الى الانفلات من اسر الغربة والوثوب في قفزة واحدة الى موطنه ومسرح طفولته وفتوته .

هكذا اشرأبت نفس خطار تواقة الى القرية . وارهف حنينه اليها ان القرية التي كانت ملعب طفولته كانت كذلك مكان جريمته .

***

من الامكنة ما تفارقها كأنك تنسلخ عنها ، ولقد نفض الشيخ خطار مغتربه عن نفسه كأنه لبط عن قدميه حذاء تهرأ . وكان على شدة لوعته وحرارة شوقه للعودة حريصا على ان يحتفظ بالاسم المستعار الذي انتحله حين فر من لبنان . ولقد كان بين الالواح الخلابة التي طفرت الى مخيلته من ماضيه ، صورة تطفو عليها جميعا ويخيفه مرآها ، تلك كانت طيف البيك الذبيح والصندوقة المخلوعة ، والطفل الذي يتمه والزوجة التي رملها . ترى ما حال الست بهيجة ، الا تزال تتطيب بعطر البنفسج ، وتكمن في اقصى عينيها دعوة لغرام ؟ وكامل هل كبر واصبح بيكا يتزعم القرية ؟

لقد ذكر الشيخ خطار ان القرويين في لبنان لا ينظرون اليك فحسب بل يحدقون بك ويحسبون ان من حقهم ان يعرفوا من امورك كل خافية . لذلك هو لم يسلك اقرب السبل الى لبنان ، بل عرج على نيويورك وفتش في تكتم عن جراح ماهر في تبديل ملامح الوجوه ، فبقي خطار متخفيا في مستشفاه نحوا من ستة اسابيع

قاسى خلالها آلاما جهنمية اثر عملية أجراهـا له الجراح في الوجه فانقلبت جميع ملامحه .

وبعـد ان انتزع الجراح الضمادات اخـذ للشيخ خطار صورة شمسية ذعر هـــذا لمرآها وفرح : « صدقت يا دكتور أنا شخص جديد » .

« لا » اجاب الدكتور . « لن تصبح شخصا جديداً حتى اقطع عصبا من اعصاب الحنجرة » .

ورضخ خطار لعملية جراحية ثانية في حلقة حبسته في فراشه اسابيع اخرى . ولمـا انطلق صوته بالكلام تلفت فيما حوله مفتشا عن صاحب الصوت الذي لم يسمعه من قبل ، ثم قهقه ضاحكا ضحك الظافرين .

***

هكذا اطل الشيخ خطار في منتصف الشتاء على لبنان بوجه جديد، وصوت جديد، واسم مستعار وثروة اضخم من حلم الفقير.

وتمهل في بيروت شهورا ابتاع خلالها عقارات واسعة وشهرة اوسع اذ اغدق على منظمات الاحسان تبرعاتـــه وملأ الصحف بصوره وتصريحاته .

وكان زبونا مطواعا لسماسرة العقارات فمـــا ان عرض عليه احدهم لوكندة قرب القرية التي انتشرت فيها خرائب بيوت مشايخ آل شنديب حتى اشتراها بثمن . . . ترى أحسب ان حيطان اللوكندة مطلية بالذهب ؟ وشرع حالا في إعدادها قصرا له .

وحين جاء الصيف انتقل المغترب الكبير الى قصره وكان من

الطبيعي ان تتوافد للسلام عليه جماهير المسلمين من ابناء القرى المجاورة . غير ان الدكتور كامل الجيذور لم يكن من القرويين العاديين الذين يهرعون الى السلام والتهنئة فلم يشخص الى القصر الا بعد رجاء من اهل القرية والحاح من امه .

« ما أنا بحاجة إلى ان استدين من هذا المهاجر فلماذا تصرين علي ان ازوره يا أماه » ؟ فتجيبه الام : « عجل بالسلام عليه . قلبي يحدثني ان في زيارته خيرا » .

ونهض المغترب ونهض جلاسه العديدون اذ تقدم الدكتور نحو قاتل ابيه . اما خطار فشعر بشبه دوار وبحنو ناعم نحو هذا الطفل الذي اصبح رجلا، وبزهو غطرسة المجرم الذي نجح في اخفاء جريمته ، وبنشوة سادية . واما كامل فمشى مشيته العادية الرزينة . واذ دنا من المغترب ليضع يده في يده اجفل ومشى القهقرى مسرعا ويده تعالج مؤخرته وعيناه مذعورتان تائهتان . ثم جمد لحظة وشعر بارتجاف في ركبتيه وجفاف في فمه ، وحرارة في وجنتيه . غير انه تمالك روعه ومشى نحو المغترب من جديد يهز يده ويتكلف الابتسام .

وكان من الطبيعي ان يضحك الجمهور لرؤية يد الدكتور تحك ما سموه « مفكرة الاستاذ » . وكان من الطبيعي ان يحاولوا التمويه عن ضحكهم بالتفوه بعبارات المجاملة وتقديم الدكتور الى المغترب ، فتصافحا وجلس الجميع الى التحدث بشتى المواضيع . واخذ خطار — على عادة المغتربين العائدين — يقص عليهم الحكايات عن البرازيل ويتوجه بالكلام الى الاستاذ كامل ويسأله عن احواله .

فلما علم انه استاذ سيكولوجي سأله الايضاح ، فأجاب الدكتوران السيكولوجيا هي علم النفس وهي في بعض النواحي تشبه علم الغيب .

وحين اراد الضيف الانصراف سأله خطار عن اليوم الذي يروق له فيه ان يستقبله اذ انه يريد ان يرد الزيارة حالا . فأجاب الدكتور ان هذا لشرف عظيم وانه لن يقبل من المغترب زيارة بسيطة بل يتوسل اليه قبول الدعوة للعشاء . اجاب خطار : « ان هذا الشرف عظيم » . وزاد كامل : « ارجوك ان تفعل ذلك في العشرين من الشهر القادم لانني سأبدأ هذا الاسبوع بترميم البيت وتجميله كي يليق لاستقبالكم » . وافترقا باسمين .

***

نزلت بام كامل كوارث فاجعة ، ولكن قليلا منها كان في عظم مصابها اذ سمعت ان ابنها سينفق كلّ ما ادخره في حياته — اربعة آلاف ليرة — على ترميم البيت . فقد كان يصعب عليها ان ترى ان البيت في حاجة الى اصلاح ، وكان يدمي قلبها ان ترى ابنها يرمي بثمرة اتعابه من غير روية . اما الابن فأصر على الترميم والانفاق ، وكعادته مذ شب ، غلبت ارادته ارادتها فانطلق العمال يحفرون ويبنون فاستقام الحائط الشمالي ، وفاحت رائحة الدهان تبشر بالعمران ، وامتد البلاط الاحمر في مدخل البيت ، وزالت الدرجة من مدخل غرفة الطعام ، وارتفعت الطنافس الخضراء ، وانتشرت سود الكرامي اللامعة . غير ان الثريا بقيت حيث كانت ، كذلك بقيت السجادة العجمية ملتفة

على نفسها في الزاوية .

وليلة العشرين من تموز اشرق البيت بحلته الجديدة ، وجاء الضيف الكبير مع اعيان القرية فاستقبله كامل بحفاوة واحترام، مزرّرا سترته محدقا به تحديقا شديـــدا . فلما لمحت عينا الضيف السجادة ملفلفة في الزاوية ، ورأى الثريا المطفأة توهم الدكتور انه اكتشف همامة بابتسامة هازئة ، فابتسم كامل بدوره ودعا الضيف الى دخول غرفة الطعام فما وصل خطار الى عتبتها حتى رفع قدمه الى الدرجة التي كانت هناك وازالها الترميم ،فما لمست قدمه الارض الا وثقبت قلبه رصاصة من الطبنجة التي كان الدكتور يحتملهـا حول وسطه ، تحت السترة المزررة .

ضيعة الكِلاب

« الله يلعن حليب امهاتهم . الله يلعنهم في كل شريعة وكل دين وكل كتاب ! »

اما انا فوجمت مذعوراً . ترى اي شريط كهربائي هززت في نفس سائق السيارة حتى انفجرت هذه القنابل بين عيني ؟ كل ما فعلت هو أني سألته اذ انصرفنا عن الساحل لبنان ورحنا نطوي هضابه القريبة :

« ما اسم هذه القرية التي تتبوأ التلة فوق النهر ؟ »

لقد اكتريت هـــذه السيارة لنزهة في الجبال المشرفة على بيروت ، بعد ان تثبتّ ان السائق مهذب ، رصين ، فما باله الان اذ سمع سؤالي يشد برجله اليمنى على البنزين فيطوي المنعطفات بسرعة مرعبة ؟ ولأي سبب تفور من فمه هذه الحمم من شتائم ؟

* * *

فتح بو ملحم باب غرفته الحقيرة ، التي لم يكن لهـــا نافذة ، فهاله ان الشمس بهرت عينيه . وكان متوقعاً ان يرى الدنيا مكفهرة والامطار منهمرة شأنها في الايام الاربعة التي مرت عليه . وتحامل على نفسه فجرّ قدميه السقيمتين حتى دار حول البيت

وتطلع في جهات السماء فلم يبصر اثراً لغيمة . وسمع من غير ان يرهف اذنيه ان الحياة عادت إلى القرية فالديوك تصيح والمواشي تسرح ، والناس يتنادون . فهلع قلب بو ملحم وخنقته الغصة واهتزت شفتاه وغامت في عينيه دموع .

وكأن بوملحم اخذ على نفسه الكفر بصنع الله الجميل ، اذ حزن حين جلا الطقس فتضاعف يأسه لشعوره بالمعصية فوق شعوره بانه لا بد من ان يعترف امام نفسه بانه شاخ فـــلا يستطيع الذهاب الى الحقول . فان الامطار حبسته في البيت اياماً اربعة يسرت له عذراً للراحة ، اما الان والشمس ساطعة فالحقول تناديه الى الف واجب ، الى افتقاد حيطان «الجلالي» أهدمتها العاصفة؟ الى اقتطاع الاغصان التي كسرتها الرياح ، الى تصيّد العشب الاخضر للبقرة ، الى فحص الارض متى تجف قشرتها فتطيب اليد للفلاحة ، واغصان الزيتون كيف زهرها — من يقدر ان يعدد واجبات الفـــلاح وطقوس تعبده في هياكل حقوله ؟

وسأل بو ملحم عن سيده شاهين بك صاحب البيت ومالك الحقول فقيل له ان البك انطلق الى الكروم . فزادت هموم الفلاح . اذاً فلم يعد امر عجزه عن العمل سراً خفياً . فهذا شاهين بك — الله يطول عمره — قصد الى البرية من غير ان يوقظه شفقةً عليه ، وعلماً منه ان شريكه الفلاح هرم فلا يصلح للكفاح . ترى اهذا السبب نفسه اختفت من غرفته الساعة المنبهة التي كانت تدعوه الى العمل برنينها قبيل كل فجر ؟ هل لاحظ شاهين بك ان شريكه يتوانى في النهوض فخبأ الساعة كي يفسح له في مجال الراحة ؟

وسمع بو ملحم في اذنيه طنيناً ، طالما سمعه في الشهور الاخيرة واصابه شيء من الدوار ، فمر بيده على جبينه محاولا طرد اوجاع رأسه ، ومشى منحدراً الى القبو تزدحم الذكريات في مخيلته .

هي ثلاثون سنة قضاها في خدمة البك . عمر طويل انفقه يقاتل الآفات والجراد ، والمحل ، والثلوج ، محاولا ان ينتزع من مثني شجرة زيتون ، وكرمي عنب ، ما يقوت البك وعائلته ويقوت الفلاح وعائلته ويدفع الضرائب ويسند بقية من زعامة موروثة .

وتطلع حواليه فاذا كل ما يرى يحدثه باتعاب السنين . هذه البئر هو الذي حفرها وبناها ، والحجارة البيضاء في الحائط القديم المسود هو الذي صفها ، وشجرة العنبر هو الذي غرسها . واليوم صحا الطقس وهو لا يستطيع ان يزرع ولا يهذب الاشجار ولا يحتطب ، وكل ما في الجو يناديه ان انطلق الى الحقل ، فأحس كانه تقي يسمع الاجراس في يوم العيد ولا يستطيع المشي الى الكنيسة لاستماع الصلاة .

وتوثبت النقمة في صدره على شاهين بك صاحب الارض : « اي شيء كسبت في خدمة البك ؟ . لا الارض ارضي ولا الاشجار التي زرعتها او عنيت بها ملكي . وها انا جاوزت الستين أوشك ان اصبح مقعداً ولا فلس اقتصدته . »

غير ان النقمة ذابت في ميوع العاطفة إذ ذكر ان شاهين بك هو حبيب اليه وانه كذلك فقير مثل فلاحه . ثم اليس البك مثل بو ملحم فلاحاً ؟ اليس كلاهما شغفاً بهذه الزيتونة ، مقدساً للارض ؟ الا يعيشان تحت سقف واحـــد ؟ صحيح انه يخدم البك غير انها

خدمة ليس فيها عبودية. هما في جيش واحد، ابو ملحم جندي والبك شاهين يعلوه رتبة ولكنهما خلال السنين قاتلا معاً، وجاعا معاً، وشبعا معاً فلماذا النقمة ؟

صحيح ان شاهين بك هو صاحب الارض ولكنه فقير ومدين، اما بو ملحم من يقدر ان يطالبه بقرش ؟

ألم يدفع آخر حساب عليه في سوق البلدة، اربع ليرات و٨٢ قرشاً دفعة واحدة ثمن حلويات ومفرقعات اشتراها لعائلته في الصيف الماضي، ليلة العيد ؟

وكان من الطبيعي ان تتشابك التأملات وتتراقص امام بصره الذكريات، وان تسطع امام عينيه صورة لرشاد ابن شاهين بك. وكأن تلك الصورة اوحت اليـــه امراً قد لا يكون غريباً عن حادثة المكتوب المسوكر الذي استلمه البك من اسابيع وكانت فيه ورقة خضراء ضحك لها البك. وكأن الدنيا بعد ذلك تبدلت فالبك رضي ان يدفع بعض حساباته ثم يتودد الى بو ملحم ويدفع له بعض المتأخر من اجرته. وتختفي الساعة المنبهة من غرفة الفلاح.

تذكر بو ملحم كل هذا وابتسم، فقد كان على ود مع ابن البك رشاد، قبل ان سافر هذا الى تلك البلاد البعيدة - اربعين يوم بحر - وطالما احتطبا معاً، وقضيا النهارات الطويلة في ايام الفلاحة في الحقل، وفي ايام عصر الزيتون كان رشاد يدور خلف كديش المكبس ويحدو مع بو ملحم اغاني البدو.

ثم غاب رشاد سنوات عديدة، ومكاتيبه قليلة. ولكن هذا المكتوب المسوكر وفيه الورقة الخضراء ؟ سبحان الله هو مغير

الامور .

وحين اقترب من القبو حيث زرب الحمار انبسط على وجه بو ملحم شعاع وانتشرت على شفتيه ابتسامة ماكرة، واستعاد جسده قوة ، ففك رسن الحمار والبسه الجلال ثم خرج به من القبو فامتطاه ويمم بـــه سوق الضيعة الى حانوت صديقه حمد عساف صانع الجلالات ومصلحها .

جلس الصديقان وبينهما جلال الحمار يتعاونان على ترقيع خروقه وملء جوفاته ويتهامسان . ومضى نصف النهار وهما في التشاور والتدبير حتى انتهيا في آخر الامر الى قرار ، فاذا بحمد ياخذ الدواة والورقة والقلم ويسطر فيما يملي عليه بو ملحم بعض العبارات وينمق بعضها الآخر ، فلم يُقبل العصر الا والرسالة جاهزة معنونة تزدهي باوراق البول الملونة .

« سيدنا ، قضيت النهار في اصلاح جلال الحمار . » « احسنت» اجابه شاهين بك موقناً ان الكرامة ، واحترام النفس ، والهموم هي التي قادت بو ملحم الى السوق حيث صرف يومه .

بعض الحقائق تصغر عندها الاحلام . دولار كلمة تملأ الفم . عشرة دولارات هي ثروة . فكيف وفي يد بو ملحم ورقة خضراء قيمتها مئتا دولار ؟ ترى كيف ازدحمت العجائب في لحظة واحدة؟ على علم بو ملحم ان رشاد في بلاد بعيدة . اربعين يوم بحر فكيف جاء المكتوب المسوكر جوابا على رسالته خلال اسبوع واحد ؟ البوسطة في الطائرة – من سمع بمثل هذه السرعة ؟

واغلى من تلك الدولارات واحب الى قلب مستلمها ، تلك

العبارات التي جاءت في جواب رشاد. فقد خاطب بو ملحم بـ «سيدي العم بو ملحم» ... وشكره على اتعاب السنين .. واعتذر عن تقصيره في الماضي بسبب عدم التوفيق .. واعلن له عن حبه واحترامه وانه ابداً في خاطره يذكره ويحفظ عنه اغاني البدو.. اتظن اني نسيتها ؟ اسمع :

يا طيف يا سن الضحوك يا نعمة ما طوّلت
يا بنت عشيرك لفي مع سربة اللي حولت

وحقاً ان بو ملحم شعر بشيء من الاثم اقترفه اذ حرم رشاد بك من الـ ٢٠٠ دولار ، هذه الثروة الهائلة . ولكن تقريع الضمير لم يطل كثيراً فقد سبح هذا الغني الجديد بسعادة لم يحلم بها. اذاً فهو شيء عظيم في الحياة. شيء يحترم له قيمة. شيء يخاطب بـ «يا سيدي». والـ ٢٠٠ دولار ،لو لم يكن رشاد بك عنده منها ملايين لما ارسل له ٢٠٠ دولار .بالطبع رشاد بك هو لا يشبه سائر المغتربين ،ما هو بتاجر عادي. لعله يملك الف طائرة او معمل سيارات ، او لعله صاحب غابات زيتون لها اول وليس لها آخر . من يدري ؟ قد يكون ملكاً متوجاً هناك في جزائر العبيد .

وهدأت عاصفة الافراح ، واستقرت نفسه بعد تلك الزلزلة العاطفية ،فتململ الحرص في صدره. وقضى بو ملحم اسبوعاً همه ان يعرف كم ليرة لبنانية يساوي الدولار .

كل جريدة تتسرب الى القرية من بيروت يفحصها بو ملحم بدقة ليعرف سعر الدولار. وكلما عادت بوسطة الركاب عند العصر يسأل ركابها كم سعر الدولار. وعند العشية ينزل الى السوق فيجلس

في دكان اللحام يستمع الى الراديو علهم يذيعون سعر الدولار ، وقد اكتشف في الدنيا عالماً جديداً لالفاظ غريبة مثل « يتراوح » و« حوالة » وكلمات طويلة غريبة تلتطم ببعضها وتتدحرج مثل « ناشينال ستي بنك » و« الكوكا كولا » التي قالت الجريدة انها جاءت من بلاد الدولار .

ثم علم مستغرباً ان الواسطة لا تؤثر على السعر ، فمن العبث ان يرجو شاهين بك ان يعطيه رسالة لموظف كبير يعطيه كرتاً توصية بحامله حين يصرف الورقة الخضراء . السعر يتراوح بين ٣٢٠ — ٣٢٥ للدولار .

ودارت بوسطة (الركاب) في البلدة دورتها الصباحية معلنة اقتراب ساعة السفر الى بيروت . وكان بو ملحم قد ارتدى احسن اثوابه ، وشك لبادته على رأسه بلفافة غطت الشرايين المنتفخة زرقاء على صدغيه ، واذن لنفسه بالتطلع في المرآة المكسورة القديمة المغبرة فابتسم ولم ير القوس الابيض تحت عينيه ، قوس الهرم ، ثم حاول ان يزدرد ترويقة فابتلع لقمة واحدة واكتفى .

كذا كانت تيارات العواطف المضطربة تهيج في نفسه للحدث العظيم - النزول الى المدينة وصرف الشك .

ودعاه الركاب ، وافسح سائق البوسطة لبو ملحم المكان المميز في المقدمة ، ودارت العجلات والراكب رقم ١ في صهوة تلك المكنة الجبارة ذاهل فرح .

لقد علا بو ملحم اميالا كثيرة نحو السماء حين ارتقى درجتين الى مقعده في البوسطة ، واحس ان الدنيا صارت فعلا تحت قدميه

وان سكان البسيطة مثـــل ركاب البوسطة خلفه ،فسكر بخمرة السرعة . وللمرة الاولى بدت له اشجار الزيتون صغيرة اذ هو الان يراهـا من عـــل لا من تحت اغصانها ، والنهر ضيق كخيط لم يسمع هديره اذ ربحت البوسطة فوق جسره .

وفيما هو في نشوة العز تفجر ركاب البوسطة بالحداء على شرف الضيف المسافر ،وختم احدهم الاغنية بست طلقات مهرها الباقون بالزغاريد . هي لحظة تزدحم فيها مباهج الحياة ، وروعة الاحلام المحققة فكأن المرء في غيبوبة .

وراحت البوسطة تركض في سهول الساحل تزمر هنا وتلتوي هناك . وكادت ترتطم بغيرها مرات عديـدة ، فقلق بو ملحم وكاد يتهم نفسه بالخوف . غير انه ما لبث ان استلذّ طمأنينـة النجاة ، وزها بنشوة الغمار .

وقفت البوسطة في الـكاراج الصاخب المزدحـــم ، فنفر كل الى شأنه ، وهبط بو ملحم الى الارض من جديد فتضاءل شأنه في عينيه امام هذه الجماهير المتدفقة والتراموای الضجاج ، والسير المتدفق . انها لمدينة كلبة ، بيروت .

وتطوع بعض رفاقه ان يعينه في شؤونه . سبحان الله ما الذي جرى ؟ فهؤلاء الذين قوسوا له وتغنوا بمحامـده منذ هنيهة صاروا هنا يخاطبونه بغير اللهجة القروية المتأدبة بل ان بعضهم كفر فـلم يعد يلفظ القاف جبلية صلبة بل مائعـــة . اما عمهم بو ملحم فشكرهم وانتحى الساحة الكبرى « ساحة البرج » .

وكان اكثر ما ادهشه وهو يمشي سماع الشتائم القـذرة وان

الناس يلتقون فلايسلم الواحد على الثاني كأنه لايعرفه ولا يراه . وخطا يقطع ساحة البرج الى الجهة الشرقية فلم يدر الا وسيارة تحاذيه وسائقها يصيح « حيّد يا بغل » .

فارتبك وكأنه لم يصدق ان في الدنيا من يجسر أن يهينه . وفيما هو يفكر بما عساه يصنع ابتعدت عنه السيارة فلم يعد من فائدة للتفكير !

وتابع سيره فاذا به يرى في الشارع الممتد من ساحة البرج دكاناً لم ير له من قبل شبيهاً ، اذ انتشرت الاوراق المالية على حيطانه ، وتكدست غيرها على طاولات زجاجية . وفيما هو يتفرس مأخوذاً خاطبه رجل ضخم «الجثة» : اتريد ان تصرف دولارات؟

– « ليس معي دولارات . »

ترى من نشر الخبر في بيروت ؟

– « والله على خاطرك . هنا نعطيك ٣١٩ للدولار . »

غريب امر هؤلاء التجار يحسبوننا معشر الفلاحين اغبياء ، نحن الذين نصطاد العصفور بحجر ، ونستل من حبة الزيتون زيتها ونخزن منها الوقود .

« كثر الله خيرك ، ليس معي دولارات . »

اما الرجل الضخم فلم ييأس فظل يرفع السعر الى ان بلغ ٣٢٦ . فضجت باذني الفلاح كلمات كثيرة « يتراوح » الظاهر ان الدولار اليوم يتراوح . من يدري ان « الناشنال ستي بنك » يحتاج الى دولارات على كل حال . لم يطمئن الى الرجل الضخم ومضى في سبيله فاذا هو في سوق الصاغة حيث لم يأبه احد لشأنه

فتمهل في قطعه معجباً بهذه الاساور الذهبية ، الوف منها تطل من خلف الزجـــاج ، والجواهر الفارقة بالاطالس تغمز رائيها بعيون ملونة .

ولم يشعر الا وهو في زحمة سوق سرسق حيث انس برؤيـة الكثيرين من امثاله من المعتمرين اللبـادة ، اللابسي السراويل . وشاقه ان يبادل التحية احداً من الناس فقـد فرح ولم يجفل اذ رأى رجلاً وقوراً يلبس الغنباز العربي يثب من حانوت فيسلم عليه بحرارة ويناديه « حضرة الشيخ » ويلح عليه ان يرتاح على كرسي في حانوته الذي سماه وضيعاً .

وما كان ذلك القروي بالفلاح الساذج الذي يستهويه لطف اي حانوتي بل هو يعرف كيف يصنف الرجال . فهاهو قد اعرض عن الرجل الضخم . غير ان لهجة صادقة وضيافة كيسة غمرت كلام تاجر سوق سرسق اغوث بو ملحم فاذا هو يقعد على كرسي في الحانوت ويريح قدميه المنهوكتين . وبعد لحظات ظهرت ، كانما هي بفعل السحر ، صينية عليها شراب خمري مسود متاج ، قدمها التاجر بقوله :

— « كوكا كولا من بلاد الدولار . »

اجاب بو ملحم متمتما :

« ممنون ناشنال ستي بنك » . ومج الشراب البارد الشهي على مهل فيما كان التاجر يعتذر له انه في حقيقـة الامر فلاح فهو يملك كرم زيتون بالقرب من المدينة لعن الله التجارة ما اصعبها وارذلها وما اشرف الزراعة . ولكن الحكومـة فتحت ابواب

الاستيراد فتدنت اسعار الزيت . خذ الموسم الفائت . . بيروت يا سيدي هي بلعت الجبـــل وقتلت الزراع . بيروت تجارها لايشبعون ربحاً . لايقنعون بما قسم الله من ربح مشروع . يريدون ان يغتنوا بسنة سيدي – هذه اللفظة اعادها مراراً – سيدي لم يعد يطيب العيش للواحد منا الا اذا اقتنى اوتوموبيل . انا اقنع اذا ربحت في النهار خمس ليرات . لماذا يحق لي ان اربح اكثر ؟ العامل لايربح خمس ليرات . الفلاح لا يربح خمس ليرات . لقد ضاع الحيـاء والعرف وشرف المعاملة بين الناس . خذ الصيارفة ، يشترون الدولار بـ ٣٢٥

فقاطعه بو ملحم بلهجة الخبير العارف :

– « الدولار يتراوح » .

الحق معك يا سيدي . الدولار يتراوح . الصيارفة يشترونه بـ ٣٢٥ وحين اريد حوالة لارسلها الى اميركا ثمن بضائع ندفعها الى الصيارفة على حساب ٣٩٠ . لماذا لايدفعون للزراع ٣٩٠ ؟ يا سيدي هو الكفر بالله . كيف حال الغائبين يا الشيخ بو ملحم ؟

ومن الطبيعي ان يتفرع الحديث ويدور وينتهي بان يبيـع الفلاح الحوالة على حساب ٣٨٥ . وفتح التاجر صندوقه الحديدي وتناول كل ما فيه من اوراق مالية وراح يعدهـــا حتى بلغت الاربعماية ، فحنق واعتذر ونادى على خادمه ان يذهب فيأتيه من البيت بباقي المبلغ . وأصر على الغلام ان يسرع في العودة ثم عاد فزعق به ثانية ان لايبطيء على الشيخ .

واستمر الاثنان بالاحاديث العادية ولم يلبث بو ملحم ان فطن

الى البضائع الكثيرة المتنوعة في الدكان – لم لايتحوج الاغراض التي يريدها من هذا التاجر الفلاح الشريف الذي دفع له السعر العالي بالدولار ، واستشار صديقه بهذا الامر .

– مالك وللانفاق يا شيخ . احرص عـــلى دراهمك . انا لايهمني ان يجاملني اصدقائي فيشتروا مني ، اما اذا كان لابد من ان تشتري ، فهذا البركال الانكليزي الازرق العريض غسّل والبس . ثابت اللون ولو غليته بالماء ، بـ ٢٨٠ قرش ، بالرأسمال وحياة شرفك وشرف ..

ومن البركال الانكليزي العريض ، الى مناديل اليزما ، الى حذاء عسكري لبسه بو ملحم حالا ، الى دمية كاوتشوك تصرخ اذا ضغطت عليها ، الى مرآة براقة الى ورق وحبر ، الى ساعة منبهة . آه .. وقتها كي ترن في الساعة الرابعة . شاهين بك سيفهم اني لا ازال شاباً اقفز من الفراش قبيل الفجر . الى .. الى .. الى ان جمع التاجر الحساب فاذا هو ٧٢٠ ليرة . العشرون ليرة هدية مني . سبعمائة تكفي . وبفعل السحر ظهرت صينية هائلة عليها الوان الطعام واشكال الحلوى وارغم التاجر ضيفه على تناول وقعة الظهر .

وفيما الاثنان يأكلان رجع الخادم لاهثاً :

– معلمي ، نسيت ان اطلب منك المفتاح .

الاكل شهي وبو ملحم جائع ، والحديث طـــلي فلم يتعب التاجر كثـــيراً باستدراج ضيفه الى قراءة مكتوب الغائب ، « سيدي العم ، » واستفسر الضعيف من صديقه عن معنى الكلمات

الافرنجية المطبوعة في اعلى الرسالة :

Importation de Liquores

فاجابه ان صاحب التجارة مستورد خمور .

– « يعني ؟ »

– « يعني انه بائع وسكي ، وعرق ، و .. »

بائع عرق رشاد بك ! ! ووقعت من بين انامله قطعة البرمه المغموسة بالسكر المذوب .

واحتمل صرة البضائع التي اشتراها والسبعين ليرا وانصرف راجعاً الى الكاراج وشعر بثقل الصرة ، وضيق الحذاء الجديد الذي لبسه ، وداهمته شبه نوبة بكاء من غير ان تنهمر دموعه . واحس ما حوله مطبقاً عليه فلما بلغ الكاراج وعلم ان البوسطة لن تعود الى الضيعة قبل الساعة الخامسة اعلم السائق انه سيركب بوسطة القرية المجاورة « المديلبه » وينتظرهم على النهر .

ثم حشر نفسه في احد المقاعد الخلفية في بوسطة « المديلبة » وقضى نصف ساعة مريرة حتى بلغ مفرق ضيعته فترجل ومشى مثقلا يسمع الطنين يدوي في اذنيه ، وبالحذر في يمينه . فنقل الصرة الى يده اليسرى ، واستنهض كل ما في نفسه من عزيمة حتى بلغ النهر فانحنى ، فشرب وغسل وجهه ثم نشفه بالقماش الذي اشتراه ونظر فاذا شبه سراب ينتشر امام مقلتيه ، وارتجف خده الايمن فتناول المرآة وتطلع فيها فاذا زرقة صبغت جبينه ووجهه . بركال انكليزي ثابت اللون ... وحياة شرفك ... رشاد بك بياع عرق .

واعاد القماش الى الصرة ، وشدها فسمع صوت الدمية خافتا جارحا هازئاً فضحك وبكى معاً .

وقعد على حافة النهر ، بعد ان نزع حذاءه . والطين يتعالى في اذنيه وتطلع نحو الضيعة فرأى بيوتها المنبسطة السطوح تموج وتتأرجح كانها ثريا تعلقت بالسقف في زلزال ارضي ، ولمح اشجار الزيتون قد تعالت بواسق تتأود بعنف وتميل كأنّ إعصاراً ينفخ فيها ، وهمّ ان يرفع يمينه محاولا ان يدفع الرياح فلم يستطع ان يحرك ذراعه . فملكه الذعر ، غير انه عاد فابتسم . ففي تلك اللحظة علا رنين الساعة المنبهة . فضحك وبكى معاً ، وجار على نفسه فزحف نحو النهر ورمى فيه الحذاء الجديد ، ودفع بالصرة فطفت على المياه وانسابت عائمة تغوص والساعة المنبهة ترنّ . وحين غرقت الصرة فاضت روح بو ملحم .

« الله يلعن حليب امهاتهم . الله يلعنهم في كل شريعة وكل دين . في الربيع الماضي قتل « الجماعة » منهم رجلاً مسناً بعد ان نهبوه ونزعوا حذاءه ومسحوا وجهه بالصباغ الازرق . اتعلم ماذا فعل ابناء هذه الضيعة ؟ تظاهروا انهم صدقوا التقرير الطبي بان الرجل مات بسكتة دماغية . هكذا تهربوا من واجب للاخذ بالثأر . تسألني ما اسم الضيعة ؟ اسمها ضيعة الكلاب » .

الطابة الخضراء

من التجار من له عقلية المرابي فهو لا يقيس نجاحه او فشله الا بقدر ما يربح او يخسر . ومنهم من لا يأبه للمال يجنيه الا اذا صحب جهده الى مبتغاه دويّ السعي ، وضجيج العمل .

اما انا فلو قُدّر لي ان اصبح ملك انكلترا وامبراطور الهند لما رضيت بحمل الصولجان وخطبة البرلمان من غير حفلة التتويج .

لذلك كنت نشوان في مكتبي عشية الخامس من تموز عام ١٩٤٦ تطربني زغردة التلفون وطقطقة الآلات الكاتبة وصلصلة مكنة الجمع ، وترتعش نفسي لكل تلغراف افضه ، ورسالة اقرأها ، ويروقني ان في بابي جمعاً ينتظرون اذني بالدخول عليّ ، وان الكتبة يأتون الى طاولتي سراعاً باوراق اوقعها او امزقها ، واني وان كنت اتحدث الى مستخدميّ بلهجة كيسة فلم يكن ليذهب عن خيلائي ان كلماتي آمرة ناهية .

كل هذا في مهجر غريب اللغة والعادات والسكان .

لغيري الجنة وانهارها وثمارها وحورياتها . اعطني زاوية في جهنم اشعر فيها اني رجل ذو شأن .

تلك الزاوية كانت نائية عن موطني لبنان . اسمها « مانيلا » عاصمة الفيليبين . وكان يزيد في زهوي بالوصول الى قمة هـذه الهضبة الصغيرة التي شققت اليها طريقي بيدي واسناني اني رسمت لها السبيل باحلامي . ولئن كانت دربي في ذلك الحين تبدو معبدة لا يثور فيها غبار الكفاح ، فلأن الغبار استقر على طريقي — مروّيً بدمي .

ولم يكن ليفوتني وانا في زحمة العمل ان اتطلع الى حائط غرفتي فأدغدغ بعينيّ راية وطني المستقل . وكنت فيما مضى بجرح كبريائي ان اصنف في دفتر المغتربين بين مهاجري المستعمرات . وكأن كل هذا لم يشبع نهمي الروحي فرحت امرغ نظري فيما تحت العلم ، ذلك الاطار الذي يحيط برسوم تعييني قنصلاً للبنان في « الفيليبين » .

لك ان تضحك مني ما تشاء ، فاني لم اكتف بكل هـذه الفخفخة بل توخيت على باهظ الاجار ، ان يكون مكتبي في الطابق الثالث فوق القنصلية الفرنسية لتستظل شرفتها بعـد ظهر كل يوم العلم الذي رفعته على شرفتي . لا عجب ان ضحكت مني فانا الآن اضحك من نفسي اذ أذكر وقفتي على شرفة مكتبي يترافص قلبي كتراقص ظل رايتي على شرفة القنصلية الافرنسية ، هناك حيث رفضوا ان يسجلوني سنة ١٩٢٥ ، عام الثورة ، بسبب انني درزي .

وكأني كنت في رؤيا مخفضاً بصري محدقاً في شرفة الفرنسي إذ سمعت صوتاً عربياً ابح مخنوقاً يصيح :

– « ان شاء الله ضميرك مرتاح ؟ »

والتفت الى خلفي فاذا انـــا بشخصين لم اتبينهما اذ كنت لا ازال في نشوة احلامي بـــل حسبت انهما من اولئك الناس الكثيرين الذين اسمع اصواتهم واتحـــدث اليهم واساكنهم في حياتي الثانية – حياة الرؤى والاوهام .

وكأن صاحب الصوت حنق من إعراضي الذي لم يفهم سره فردد بلهجة المحاسب المدقق :

– « ضميرك مر .. تا .. ح إن شاء .. »

فاستيقظت من غفلتي مذعوراً مرتجفاً استعرض ، في لحظة ، حوادث ايامي – اي جناية ارتكبت ليجيء هذا الضمير منتصباً امامي يحز سؤاله بصوت كالمنشار – «ضميرك مرتاح ؟» ما هي بتحية ولا سلام هذه العبارة وما هو بصديق هذا الرجل الغريب الاسمر العملاق الواقف امامي تشع عيناه ببريق ظننته وميض البغضاء . ولم ادر ما الذي حفزه الى ان يعاديني عن غير معرفة ، أهو نحوله وانا بدين ام بياضي وهو شديـد السمرة ، ام طوله وانا قصير ، ام مظاهر فاقته وضعتـه امام معالم بسطة حالي وقوتي ، ام ساءته مني هذه العافية الفوارة حين بترت عبارته قحة جافـــة مستمرة انتهت ببصقة من لعاب احمر صبغت منديله القذر .

– « ضميري مرتاح ... مرتاح جداً . من حضرتك ؟ »

فأجابني بسؤال :

– « انت قنصل العرب؟ لقد ارساني اليك الشافر العنشايزي . » اي لغة يتكلمها هذا البدوي ؟

كدت انزلق الى حياتي الثانية من جديد لولا ان تقدم مني رفيق العملاق ، ولم اره على رغم قربه مني فناولني رسالة وانحنى متأدباً فشكرته وفضضت الكتاب وقرأت :

« ان ممثل جلالته البريطانية يهدي تحيته الى قنصل لبنان ويرجو ان لا يكون اقترف خطأ اذ وجه اليه حامل هذه الرسالة اليمني العربي والشهادة المرفقة » .

اما الشهادة فتعلن :

« ان جمعية مكافحة السل قد فحصت ناصر بن حميد فوجدته مصاباً بالسل وفي يسرى رئتيه ثقب سببه تهرؤ الخلايا ، لذلك تسمح له بشراء خمسين حقنة ستريبتوميسين بالسعر الحكومي الرسمي – ريال وخمسة وعشرون سنتاً ثمن الحقنة ! »

اذن فان الشافر العنشليزي (الكافر الانكليزي) هو قنصل بريطانيا ، وها هو بريق السل يشع من تينك العينين في ذلك الجسد المعتل المتهدم .

وفي مثل رفة الجناح فاض قلبي حنانا نحو هذا الذي ارعبني منظره وهالتني تحيته ، فلمست ذراعه مشفقاً عليه وماشيته نحو مكتبي ، وجهدت في ان اجعله يأنس اليّ فكلمته بعربية فصحى مفخماً قافي الصلبة قاذفاً عباراتي بلهجة منبرية ، راجياً ان يطمئن الى عروبة لساني بعد ان لحظته يجدج بازدراء وجهي الحليق وجسمي السمين .

قلت :

« يا هلا بالاخ ناصر . يلوح لي ان بك علة بسيطة تشفيها

هذه الوصفة . . »

فأجاب مقاطعاً مؤنباً :

— « الله يشفي العلة . سبحانه وتعالى هو على كل شيء قدير . ان ما بي هو ثقل في الصدر نداويه في اليمن برقية من السيد الامام ، ونداويه بالشخوص الى البحر وسكنى شاطئه اربعين يوما واربعين ليلة . غير ان الشافر العنشليزي ارسلني الى دائرة الصحة فأعطوني هـــذه الوثيقة ، وأكدوا لي انها تخفف من آلامي . ولا تحسبني فقيرا . لم اسألك من أي بلدان العرب انت . اظنك حضريا ، أليس كذلك ؟ »

ونهض وفك بعض ازرار جلبابه وتناول من وسطه صرة سوداء لا ريب في انها كانت بيضاء حين حاكوها ، وعدّ منها ٦٤ دولارا وقطعة ذهبية وثلاثة ريالات فضية .

« لا ، ما أنا بمعدم يا حضري . اصحيح انك قنصل العرب ؟ »

ولقد آلمني ان يستمر ناصر بازدرائي ، وغدوت اشعر ان شعاع عينيه يحرق وجهي . غير اني لم اقو على الغضب ولم استطع ان ابادله العداء وهو على ذلك النحو تنتابه القحة الجافة المستمرة التي تنتهي حمراء في منديله القذر .

واسرعت الى تطمينه ودفعت بالوصفة الى احد كتبة المحل مشيراً اليه ان يقصد الشارع المجاور حيث تكثر الصيدليات وقلت له — باللغة الاسبنيولية — ان يدفع ثمن الدواء فقد عزمت على تقديمه هديةً لناصر ، وابقي له ثروته في صرته السوداء .

ورجعت الى اعمالي انعهدها من غير ان اهمل امر جليسي ، بل

كنت أتودد اليه بعبارات يقاطعها رنين التلفون وقراءة الرسائل والتحدث الى مستخدمي وكأن انفعال الضيف المريض انهك، فسكت وراح يحدق بالحائط دون ان يعترف بوجودي باكثر من هز رأسه بضع هزات قد لا يكون لها معنى وقد تفيد اي معنى تريد .

وعاد الغلام من مهمته باسما واخبرني انه لا اثر للدواء في أي صيدلية ، وانهم كانوا يسخرون منه اذ كان يطلبه كان في الأمر لغزاً ، او كأن الطبيب الذي وصف العلاج اراد أن يهزأ من مريضه .

فحرت في الامر ثم فطنت الى ان جاري في البناية طبيب فمشيت خطوات الى عيادته وأريته الوصفة فقهقه ضاحكا :

ـ « سترتبه .. حقاً انك ساذج . لماذا لا تطلب كيلو أورانيوم او دزينة من بيض الرخ ؟ هذا دواء عجيب انتشر حديثا وهو فتاك بميكروب السل ، غير ان انتاجه قليل وهو اندر من الوفاء . عسى ان يكون صديقك المريض مليونير ؟ »

ـ « واين اقدر ان اجده ؟ »

ـ « عند رجل واحد من أغنياء البارحة اسمه جيمس كوبلند .. »

ـ « انت تعني جيمس كوبلند الغني الاشقر سمسار الاراضي قبل الحرب .. »

ـ « لم يعد سمسار اراض . اصبح ملاك عقارات وغنيا ضخما ، عتقد انه يهرب الادوية من اميركا ولن تجد الستربتومايسين عند سواه . »

واعطاني عنوانه فرجعت فرحا الى مكتبي وصحت :

– « هيا بنا يا ناصر ، لقد وجدنا الدواء ! »

وازعجني التمهل لمماشاة رفيقي السقيم . وركبنا السيارة فصمت هو الا من القحة ورحت انا استعيد ذكرياتي قبل الحرب مع جيمس كوبلند ، وكيف كنا نلتقي في الخمارة كل مساء فنشرب الوسكي مع الصودا ونتبادل انباء يومنا فأقترض منه دولاراً او يقترض مني ، وكثيراً ما اقترضنا نحن الاثنين من صديقتنا روز – روزين كما كنا ندعوها ونتحبب بتسميتها وكنا نغازلها ونلاعبها ، وكيف كنا نتألم من الفقر وتزخر احاديثنا بالفلسفة الاجتماعية ، وكيف كان يصف لي الجنة التي سيشيدها حين يثري .

ووجدنا ، ورفيقي خلفي ، البناية وصعدنا الى الطابق الرابع حيث قطنت « شركة كوبلند للاصدار والاستيراد والتمويل » . ودخلنا غرفة الاستقبال الفخمة ، ودنونا من الطاولة الكبرى التي ظهرت عليها لافتة « الاستعلامات » . وكانت السكرتيرة منشغلة عن المستقبلين بتنظيف إطار صورة زيتية خلف كرسيها .

وبحركة اوتوماتيكية ، ومن غير قصد مني ، مددت يدي ، وقرصت ردف الفتاة فدارت الي غضبى صائحة ، فصحت انا : « روزين ! »

ولما رأتني الفتاة قهقهت حتى رأيت حلقومها واستمرت تضحك جذلى حتى دمعت عيناها .

– « روزين » اقول لك لقد تهدلت مؤخرتك ؟

فأجابت :

– « ولقد ترهلت اصابعك. ورجعنا نضحك من جديد، ولم استعد رزانتي الا حين سمعت رفيقي يدمدم : « اعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فذكرت الامر الذي جئت من اجله واسررت الى روزين : « ارشديني الى الرجل العظيم .» قالت بلهجة جازمة لم اعهدها فيها من قبل : « رفيقك يبقى هنا» فرجوت الى ناصر ان ينتظر خارجاً ومشيت وروزين . وحين فتحت الباب غاصت قدماي في السجاد الصيني الفاخر ونظرت الى اجمة شقراء خلف الطاولة المعدنية البراقة وعينين لاصقتين بصورة كبيرة بين يديه ،ولم ينتبه الى دخولنا حتى صاحت به رفيقتي :

– « جيمس ، أتنصحني ان اقرض دولاراً ..هذا الشخص ؟ » فتطلع جيمس وقفز من خلف الطاولة الينا فتعانقنا واشتبكت ايدينا نحن الثلاثة ورحنا نرقص كما كنا نفعل ايام العربدة ،وحين هدأنا ، بدأت الحديث مشيراً الى الطنافس :

– « من اين لك هذا ؟ »

اجاب :

– « جرب ان تشتري مني شيئاً تعرف من اين لي هذا . »

قلت :

– « لقد جئتك شارياً » فصاح جيمس جذلاً :

– « جاءنا زبون ياروزين. اسكبي لنا كأسين كما كنت تفعلين .

وفيما راحت الفتاة تسكب ،وفيما نحن نشرب اوضحت لصديقي حاجتي منه ، فاستوى في مكانه وفارقه مرحه ، ولمحت في اطراف عينيه وجانبي فمه قسوة وجشعاً لاعهد لي بهما،ثم تكلف اللطف وقال :

- « بالطبع عندي ستربتومايسين، عندي منه «ستوك» قليل، انما سيكلفك مبلغاً كبيراً. ثمن الحقنة ثمانون دولاراً. بعتها لسواك ب ۱۱۰ منذ هنيهة. كم يلزم صديقك؟ خمسون حقنة، انك توفر عليه الفاً وخمسماية دولار، من اجل صداقتنا، من اجل تلك العشيات. عساك لم تنسها في متجرك؟ كيف حال الشغل معك؟

قلت مذعوراً - : «جيمس! انك تسألني دفع اربعة آلاف دولار، صديقي فقير، هكذا كل مصدور فقير يموت.»

اجاب جليسي بعد ان افرغ كأسه:

- « صدقت. الفقير العليل يجب ان يموت. ماذا على الدنيا ان مات الفقراء؟ في هذه الحرب هلك الملايين وليسوا كلهم فقراء مسلولين. اتذكر ايام فقرنا؟ ألم نكن نتمنى الموت مراراً، ولم نكن مسلولين! انك تحسن الى هؤلاء اذا حبست عنهم الدواء.»

اجفلني هذا الحديث فلم اقف لأتأمله بل عاكسته بقولي:

- « ولكن سعر الحكومة هو ريال وربع؟»

فقهقه صاحبي ونهض يلقي خطبة عرفت من تدفقها وقوة حججها انه يلقيها مراراً في النهار.

- « سعر الحكومة! اشتر الدواء من الحكومة؟ هاه؟ انا لست الحكومة. انا لست الصليب الاحمر. انا لست جون روكفلر. انا جيمس كوبلند رجل عادي، جاع وتعس واضطهدته الحياة وسخر به الناس. تعال وانظر.»

ودار حول طاولته وناولني الصورة التي كان يحدق فيها وتابع خطبته:

- « اتعرف من هذا؟»

– « ابنك بالطبع . »

قال وفي صوته كبر الابوة :

– «نعم هذا ابني. هذا جيمس كوبلاند جونير، هذا الغلام الذي لن تدمي الحياة قدميه كما ادمت قدمي ابيه . افهمت ؟ هذا الفتى لن يجوع ، ولن يقترض المال من روزين . سيسكن عما قريب قصراً على البولفار ، قرب البحر ، فينظر الى البواخر توحي اليه الغمار . سيملك البواخر . نعم يا سيدي الحقنة بثمانين دولاراً . »

من الامور ما يعظم عن التفكير . وان موقف صديقي يسفل عنه . ولو اني اجزت لنفسي تبرير الجرائم لوجدت في صورة ذلك الغلام ذي الشعر الاشقر ما يبيح استثار المصدورين. وحين الح علي رفيقي في السيارة ان اخبره عن الدواء استمهلته ريثما نصل الى مكتبي.

وهناك شرحت له بتؤدة وكياسة ان هذا الدواء عزيز وجوده وان جشع التجار اغلى سعره ، وان ثمنـــه في نحو الالفي دولار – لم اجسر على ان اقول اربعة – واني لا اتجر كالمرابين فليست ثروتي اذاً بقدر ضجيج العمل الذي يراه مكتبي ، وانه لن يصعب علي ان اتبرع بخمسمائة دولار، وانه من المحتمل ان نجمع من كرام اولاد العرب في مانيلا بقية المبلغ المطلوب .

واراد اليمني ان يرد عليّ فاختنقت الكلمات في حلقـــه ثم انفجرت في فمه فبصقها دماً وبصق معها : « يا حضري. تريد ان تتجر بدوائي ثم تتخذني مطية للاستجداء » .

وعاد يسعل . اما انا فجمدت في مكاني . وكحالي في كل ازمة زلقت الى عالم الاوهام فلم استفق الا حين دخل عليّ مواطني فارس

الاصفهاني مغرقاً بالضحك واخبرني : « لقيت عنـد مدخل البناية شخصاً عرفت من قيافته انه عربي ، فكلمته . اتعرف ماذا سألني؟ سألني ان كنت انت يهوديا ؟ »

*

ما ارحم النسيان بالانسان . لو ان هذه الحادثـــة رافقتني ذكراها اسبوعاً لقتلتني . ولكن لم تمض بضعة ايام حتى غابت عن فكري ، بل كنت بعد شهر في منزلي استمع الى الراديو يذيـع انباء الاعصار وقد احكمت قفل النوافذ والابواب، والرياح تعصف في الخارج شأنهـــا في اواخر شهر تموز . وانا في لذة الطمأنينة ودفء السلامة اتسقط انباء الاعصار من الراديو ، وكانت البيانات تذاع مرة في كل نصف ساعة .

وفي الساعة العاشرة والنصف نطق الراديو بما يلي :

« قبل ان نأتيكم باخبار العاصفة يؤلمنا ان نذيع ان الطفل جيمس كوبلند جونير ابن المالي العظيم جيمس كوبلند توفاه الله بعد مرض لم يمهله الا اياماً خمسة . سرعة الريح الان ... »

ووثبت الى البستي أرتديها منفعلا متمتما حيران .

ـ « ربّ كيف تزدحم الحوادث في ساعة واحدة ، وكيف تنقضي السنوات من غير حادثة جلى . ففيما انا البس ثيابي اعلن الراديو غرق باخرة ، وطوفان نهر « الباسغ » على قرية مجاورة ، ورن جرس التلفون من قيادة البوليس يسألونني ان اشخص حالا الى غرة ١١٦٢ من شارع « تافت » .

وصعدت السلم القصبي الى الكوخ في شارع « تافت » وكان

البيت يهتز حتى خلت ان السلم سيهوي بي . وحين دخلت سمعت صوتا يقول « مواطنك هناك » . فمشيت على مهل متلمساً طريقي ، فلما بلغت اقصى الكوخ سمعت تلك القحة المسلولة ورأيت العينين البراقتين . اما الجسد فهو هيكل عظمي يعلوه جلد . « يا هلا بالحضري » ، صاح بي الهيكل ، وكان في صوته الضعيف حنو جديد : « لعلي اسأت اليك يا ابن عمي . ان ساعتي قد دنت . لقد دعوتك كي اسألك ان تجوّد لي ما تيسر من القرآن الكريم . اعجبني لفظك العربي وطربت لقافك الصلبة يوم اجتمعت بك . وأسألك ان ترسل الى اهلي اغراضي الحقيرة . اما هذه ..» وحاول ان يشير بيده فاعياه رفعها ..

قلت : « ماذا فعلت بعد ان تركتني حانقاً ؟ »

اجاب : « جئت الى هذا البيت وسكنت مع اهله بعد ان اعطيتهم نصف ما معي . وكنت اقضي الوقت بترتيل القرآن والجلوس على شاطيء البحر . بقي معي هذا المال القليل ، ارسله الى اخي واوصه بزوجتي واولادي . وهذا المصحف الكريم هدية لك مني . وهذه .. الطابة الخضراء ، اعطها للغلام الذي لقيته على الشاطيء امام القصر منذ ايام واحببته فشريت له هذه الطابة وكنت الاعبه بها . هو في عمر ولدي جاسم ، واسم هذا الغلام الغريب جمس ، ويشبه ابني ، غير ان جاسم اسمر ، اسود الشعر ، وجمس اشقر ازرق العينين ... »

ولزقت عيناي بالطابة الخضراء ولم اسمع اليمني يلعنني في احتضاره ويصيح : « لماذا لاتجوّد القرآن ؟ انت يهودي يا .. »

ظِلّ الصَّوت

قبض ابو عباس بيده الضخمة على عمامته البيضاء، وشدّها على هامته الحليقة حانقاً، ثم امسك لحيته الحصبة بيمينه غاضباً، وصرف باسنانه متمنياً لو لم تكن هنالك عمامة ولا لحية .

تلك لحظة ودّ فيها ابو عباس لو انه لم يكن من اجاويد الدروز بل بقي من جهّالهم ، اذاً لبصق في تلك اللمحة شتيمة تحرق الجو ، ثم تنقضّ الى الارض فتخدد فيها هوة اكبر من « وادي التيم » . ولكنه كان من الاجاويد ، وعلى الاجاويد حرّمت الشتائم . فراح يحدّق من جديد خلال الدرب الملتوية التي تصل « الحسّونية » احدى ضياع « الشوف » في لبنان ، ببرارها .

ولما يئس من رؤية احد على تلك الطريق ثارت العاصفة في عينيه من جديد وصاح « الله يحقك يا مجيد » .

ومجيد هذا الذي تمنى له ابو عباس المحق ، هو صغير ولدي ابي عباس ، وكان معه على موعد ان يوافيه ، تحت تلك الزيتونة الكبرى ، بعد ظهر ذلك اليوم حين تتمدد ظلال الاشجار شرقاً فتصبح في طول المسّاس . والمساس هو العصا الطويلة التي تساق بها الثيران ويستهدي القرويون الرعاة بظلها لمعرفة الوقت

بدلاً من الساعة .

وحقاً ان ابا عباس ليُعذر ان شتم ، فلقد ترك بيته حوالي نصف الليل واوصى ابنه مجيداً ان يلاقيه بالزوادة الى حيث يكون في انتظاره هناك تحت زيتونة « ام السبعة » في « حقل الحمام » حين تستطيل الظلال نحو الشرق . وهـــا هو الاب يستعرض بمرارة حوادث النهار منذ ان وثب من مـــنزله في نصف الليل ومشى منحدراً في العتمة ساعة طويلة بازاء النهر ، وكمن هناك للص لم يظهر . وحين اطل الفجر ترك مكمنه وراح يذرع الحقول ، فهو ناطور الضيعة وعليه حراسة املاكها .

وما زال يصعد وينزل ويمشي ولا شيء في الحقول يؤكل ، اذ ان الفصل خريف فلا عنب ولا تين ، وها هو الآن تحت شجرة الزيتون ينتظر « مجيداً » والزوادة . وليس من اثر يلوح لمجيد او للزوادة ، وقد برح به الجوع .

اضف الى ذلك ان الناطور في تجواله تحرّى الصيد ، وكان من الغريب انه لم يصطد الا حية وبومة ، فاستعاذ ابو عباس من شر ذلك النهار .

وابو عباس ، الناطور ، هو في حيرة العمر بين شدة الفتوة وهدوء الشيخوخة ، وهو كذلك في تقواه ، لم تستقم به جودته ، ولم تستقر ، اذ لم يمض عليه في زهده الا شهور ، منذ ان خلع الطربوش وهجر السيكارة والعرق ، واطلق لحيته وحلق شعر رأسه ، وتعمم بلفة بيضاء . فهو اذاً حين ينفعل ترتفع يـــده او تطفر الشتيمة على لسانه ، فتكبح جموحه رصانة الاجاويد الذين صار في

صفهم فلا تقفز الشتيمة ولا تنطلق الضربة ، ولا يلبث ان يرجع الى نفسه يؤنبها على حمقها وكفرها .

لذلك رجع الى فيء تلك الزيتونة يستميح الله عفواً عن سفاهته ويوبخ نفسه بقوله: « يا لك من نفس لعينة كافرة جشعة ، جوع نهار لا تصبرين » .

ثم حمدل وبسمل وراح يترنح باحدى الصلوات التي حفظها حديثاً بعد ان هجر جهالته .

وكان من سوء حظ الناطور انه لم يكد يستتم له تذويب غضبه في نشوة تقواه ، حتى سمع وقع حوافر بطيئة ضعيفة فالتفت وتعثر نظره برؤية اذنين هائلتين بينهما سحنة المرابي حمدان بك يعلو بهيمة يسميها حصاناً ، ويعرف بنو « الحسونية » أنها كديش . ولو جاز للحيوانات ان تصعد الى السماء لدخلها ذلك الكديش الذي كفّر بجوعه وجهاده عن كل ما يمكن لانسان او حيوان ان يقترفه من الذنوب .

جوع ، وبومة ، وحية — والآن حمدان بك . ذلك كثير حتى على الذي همه تذليل نفسه . فحمدان بك اشتهر امره في « الحسونية » وجوارها ، فهو الذي يرهق الارامل بالفوائد ، ويحتال على استملاك الاراضي بابخس الاثمان . حمدان بك فيه كل صفات الابالسة التي ينفر منها ابو عباس . وبوده كذلك لو فرّ من البك المرابي ، لو لم يتواقف نظراهما ، فلم يعد المهرب من اللياقة . ان للتأدب عند الدروز اكبر شأن ، فكم موقف ضحى به الواحد منهم بعواطفه ، واحياناً بمصالحه اطاعةً للتهذيب والكياسة والتأدب .

وكم طعنة قاتلة اعتاضوا عنها بكلمات معسولة .

اما حمدان بك فحين ابصر الناطور غض من نظره لمحة ، شأن من تبغته رؤية من يفضله ؛ ولكنه ضبط اعصابه وحدّق ، وذكر تفوقه على ابي عباس ، فهذا من العامة وحمدان بك من البكوات الذين هم حواجب وقد خلق الله الحاجب قوساً فوق العين يعلوها الى الابد .

كذلك كان البك في ذلك اليوم فوّار الفرح ، فهو راجع من مزرعة « عين البستان » التي تسلمها امس بعد ان نفذ مأمور الحجز بنود الرهن الواضحة الجائرة ؛ كذلك رأى ان من اللياقة ان يجامل الناطور ، فلقد عرف عنه وعن ولديه انهم من ذوي البأس الذين يأكلون رأس الحية غير مطبوخ وبدون ملح . وهم كذلك ذوو مروءة : كم جرفوا الثلج عن سطح البك ومن امام بوابته ، فلماذا لا يتودد لابي عباس بحديث بضع دقائق ، لا سيما وان قرب الناطور بساطاً من العشب ليس من العار ان يرعى فيه الحصان فيوفر عن البك شيئاً من الشعير ، فان رعى الحصان ذلك العشب في حضرة الناطور لما عد الامر سرقة ولا امراً شائناً .

وحين بدأ البك يترجل ، نهض ابو عباس وحياه : « مساء الخير حمدان بك » واذ رد البك التحية ، انهال عليه الناطور بسيل من السلام الدرزي : « كيف حال جنابك ؟ سرتنا رؤية جنابك . اطال الله عمر جنابك » . وكأن البك اراد استئذان الناطور باطلاق حصانه ليرعى بقعة العشب فقال : « حشيش اخضر جميل . ان بطن هذا الحصان مطحنة . » فاجاب ابو عباس : « سبحان من خلق البهائم

ثم أنبت لها الاعشاب » .

وقد يحسب الغريب عن دروز الشوف في لبنان ان الناطور اظهر للبـــك الخضوع ، ولكنه في حقيقة الامر اظهر له المقت والاحتقار . فلقد حياه بـ« مساء الخير حمدان بـــك » . ولم يقل « سيدنا » حمدان بك . وسأله « كيف حال جنابك ؟ » ولو تعمد التوقير لسأل « كيف حال الجناب ؟ » . وحـــين استأذنه يرعي الحصان لم يظفر منه بالتأهيل بل بجواب حيادي. فلو ان البك كان من البكوات الأصيلين المحبوبين لقفز الناطور الى ملاقـــاته ومساعدته على الترجل ، ولاسرع يخبره ان الديار سطعت حين ظهر . وان حصانه ليرعى في قلب ابي عباس ويشرب من دموعه ودمه .

يقول لك الاغراب الذين يجهلون الشوف ، من لبنان ، ان الدروز مسرفون في المجاملة والتبجيل ، ولكن هؤلاء الاغراب لم ينفذوا الى اسرار التأدب الدرزي . فلرب دعوة الى طعام هي ، لمن يفهمها ، طرد عن المائدة ، ولرب كلمة اعجاب هي لمن ارهف حسه شتيمة مقذعة .

ليس في الدنيا من حباه الله رشاقة تبطين الكلام ، وحلاوة تضمين الحديث ، وجمال الافصاح باسلوب يهمي على الاذن ولا يخمشها ، مثل جماعة الدروز .

وتطلع ابو عباس الى حوافر الكديش ففهم لماذا هو يبطىء في مشيته . فامسك بعصا « نوطرته » وراح يضرب بها الارض بعنف حانقاً وقال ، مصوباً بعينيه الى السماء : « قاسم البيطار مشغول

بفلاحة اراضيه هذه الايام ». فكأنما قال للبيك : « يا ويلك من الله ما ابخلك واقسى قلبك ! لماذا لا تبيطر هذه البهيمة المسكينة ؟ ».

ثم دار الحديث وقفز من موضوع الى آخر ، وفهم البك خلاله ان ابا عباس منتظر الزوادة. فـــدارت دواليب عقل المرابي في عملية حسابية — على ما سيأكله الحصان ، وما ينتظره من الناطور ابي عباس وولديه ايام الثلج ، فجمع وضرب وطرح ، وحين امن الربح مد يده الى خرج الحصان وسحب رغيفين بينهما الزيتون واللبن وقرصا كبة ، ودفع بها كلها الى الناطور راجياً اليه ان يأكل . واشتبك الاثنان في نضال كلامي خفي . ذاك يدعو وهذا يعتذر ، حتى انتهى الامر بخيبة البك فتكلم متألماً :

— « انت لا تأكل من زادي ، لانه في معتقدك ، كما هو في حسبان كل الاجاويد ، حرام . انتم تعتقدون ان الربا حرام » . فاجاب ابو عباس متململاً :

— « ابعدنا الله عن الحرام . نفسي لا تهفو الآن الى الطعام ».

وابتسم متأدباً . فارجع البك الزوادة الى الخرج ، واحكم ايثاقه على الكديش . وبينما هو يهم بالانصراف اكتشف مستغرباً ان ذلك الحيوان لم يقضم شيئاً من العشب الاخضر ، على مابه من الجوع . وتطلع نحو الناطور متسائلاً فابتسم الناطور ، وهز رأسه قائلاً : « سبحان من ادخل العفة حتى على نفوس البهائم . الظاهر ان هذا العشب قد داسه حيوان ، فلن يأكله حيوان » .

وفيما الاثنان يحكمان سرج الكديش ولجامه ، ذعر البك ، واشرأب صدر ابي عباس ، اذ دوى الجو بانفجار خرطوشة ، وأزّت

« رصاصة موزر » وتفجّر حداء حربي على مقربة منها .

وظهر خمسة من شبان القرية يتوسطهم حسن امين الله وفي يده بارودة موزر يحدون ويتحدّون ، باصوات هدارة عميقة متوثبة فخمة :

صوت المروّة ، ان صاح ، نفزع للندا سربة بني معروف تحكي فعالها
رحنا بيوم الكون نسكر بالدما خلّ خسيس النفس يشرب مالها

واقترب الفتيان الخمسة وكانوا حفـــاة مشمرين عن السوق « قنابيزهم » ولبثوا يحدون ، فلما دنوا من البك والناطور تحلّقوا حوله وراح حسن يهـــز بارودته فوق رأس ابي عباس ويصيح « صحائفك يا عمي ابا عباس » . ومضى رفاقه الاربعة يرددون هذا القول مزغردين وقبضاتهم مرفوعة فوق رأس عمهم الناطور ، فأبو عباس هو حبيب فتيان القرية ومثلهم الاعلى في البطولة والمروءة ، فلا عجب ان تغنوا به .

واستمع العم الى حكاياتهم . فلقد كان الخمسة قافلين من الساحل حيث اشترى حسن امين الله بارودة موزر ببضع ذهبيات ادخر بعضها من اجرته اذ كان يشتغل في الصيف مساعداً لبناء ، وبعضها مما ادخرته امه واوهمها انه ذاهب ليشتري مؤونة البيت . وها هم الخمسة يعودون الى الضيعة ظافرين فرحين . وها هي البارودة تلمع بين اكفهم ، انظر الى فولاذها الصقيل ، وخشبها الصلب الخفيف ، واعجب بآليتها كيف هي تبلع الخرطوشة وتلفظها ، واسمع لغناء وصاصها ، وهاك جنادها تزنّر به او شدّه الى كتفك ، وانظر الى الدنيا كيف صارت بهية ، وكيف تشرئب الرجولة في صدرك .

واسرّ حسن امين الله في اذن عمه ابي عباس ان هذا الحداء الذي سمعه الآن هو من ارتجال رفيقه قاسم حمود استوحاه ... وغمز الى ناحية حمدان بك .

اما ابو عباس فقد نديت عيناه واسرع تنفسه ، وشعر بكتلة يغص بها حلقومه ، ولكنه تكلف العبوس والسآمة وخاطب حسن موبخاً : « كنتَ في غنى عن البارودة . لينك اشتريت مؤونة البيت » .

اذ ذاك ايقن صاحب البارودة ان عمه ابا عباس راضٍ عن شرائه البارودة بل معجب بما فعل ، وان امه ، ان ثارت ثائرتها على حسن ، فأبو عباس كفيل ان يهدّىء روعها . فنادى رفاقه الاربعة اصطفوا من جديد ، وعادوا الى الحداء ميمنين « الحسونية » شبهَ سرية من جيش ظافر ، عائدة الى قاعدتها .

وتطلع الناطور الى حمدان بك فاذا به قد تداعى على نفسه وتهدّم ، كشحاذ كفيف صدمته حافلة القطار ورمته في قناة الطريق . فرقّ قلب ابي عباس ، واراد ان يؤاسي رفيقه فقال : « بحق سمّوا عائلة امين الله بيت ابي هزاز . انظر الى حسن امين الله كيف يمشي وصدره بارز ورأسه يرتجف كأنه حمامة هزازة . الله يمحقه . ملأ الدنيا زعيقاً . بخاطرك يا بك » .

وحين أدار ابو عباس ظهره وصلت اذنيه ابتسامة كادت تمزق شفتيه . وتطلع ثانية نحو الفتيان فرآهم حفاة ، خفافاً ، صلاباً ، خشناً ، تهزهم نخوة الحياة يحملون السلاح ، ويتغنون باناشيد القتال ، وينظمون الحداء — كذا يريد ابو عباس ان

يرى صبيان الدروز .

الدنيا بألف خير . ولسبب لا يدرك سره شد الناطور على عصاه بقبضتيه وقفز في الهواء .

اما البك فقد جرّ رجليه ، وجر خلفه كديشه . ولقد اعتاد حمدان بك شيئاً من اعراض الناس ولكنه لم يتلقّ الازدراء الى هذا الحد ، اذ يُرفضُ زاده ولا يرعى العشب حصانه ، ثم يسمع الكلام المضمن عن الحسيس ، وشرب المال .

وسار البك نحو الضيعة ، خلف الشبان ، يفصله عنهم نحو من مئتي خطوة ، وحداؤهم في اذنيه ، وفوقه سماء الله التي لا حد لها وحواليه حقول الضيعة ، التي لا يدرك الطرف آخرها ، فاحس بكبر المخلوقات ، والحقارة في نفسه . ولاول مرة في حياته استشعر الضعف والوحدة .

وحين وصل الى ظاهر الضيعة ، حيث البيادر ، رأى شبان القرية حول حسن امين الله ، يقلبون البارودة ويتصايحون ضاحكين ، والاولاد قد حملوا العصي ، يحدون مقلدين الشبان . وهنا ، وهناك ، تجمعت النساء حلقات ، وكان المرح ، والزهو ، والحماسة ، تسود الجوّ ، وكلّ يتحدث عن الحدث العظيم وبارودة ابن امين الله . وفي عنفوان هذا الصخب ، اطلت ام حسن ، فلما قيل لها ان ابنها رجع ببارودة ايقنت ان الذهبيات التي اعطته اياها للمؤونة ، قد دفنت في البارودة . وتراءت لها كواراتها الخاوية فحلّ بها الرعب . غير ان رؤية اعدائها شدّدت حيلها ، واعداؤها هم بنو عم ابنها الاربعة وكانوا بين الجمع ، فصاحت باعلى

صوتها : « الحمد لله على هذه النعمة . ابني يتطلب زاد الشرف قبل زاد البطن . ابني عنده بارودة وهو ليس مثل بعض قليلي « الشئمة » الذين امتلأت كواراتهم وليس عندهم قطعة سلاح » . صاحت ام حسن بهذا القول متحدّية ، موقنة ان ابنها ، بدون بارودة ، في وسعه البطش باعدائه ، ابناء عمه الاربعة ، اولئك قليلي الشئمة . بل هي تمنت لو ان احدهم فتح فمه بجواب ، اذاً لوقعت الواقعة على تلك البيادر . ولكن افواه الاعداء بقيت مقفلة .

وزاد الهرج والمرج ، وتعالى الحداء من جديد ، وانطلق الرصاص هنا وهناك . اما البك حمدان فقد تسلل على طرف البيادر ، هو وكديشه لم يره احد ، ولم يلاحظه احد ، فكان في صمته وبطء مشيته كأنه وكديشه ، حيال تلك البشرية الفوارة ، قناة افذار تنساب حذاء نهر متدافع نضر صخاب .

واستمر البك والكديش في السير حتى لاح لحمدان بك بيته فلمح نوراً ضئيلاً في احدى غرفه فشتم غاضباً « لعن الله تلك العجوز تهدر الزيت في سراج تضيئه باكراً والليلة هذه قمراء » . وهاج به الحنق فتسارع بخطواته واوسعها ، واسرع الكديش خلفه حالماً بالراحة ، ان لم يكن حالماً بالشعير . فبلغا البيت حين اطل القمر .

اما الكديش فقد ادار رأسه بمعلفه الفارغ وغسل القعر بلسانه وشفتيه ثم حمحم ناخباً واضطجع يائساً على عادته واطبق عينيه يرى قبواً ملؤه الشعير في حقل مخضرّ عشبه لم تدسه بهيمة .

واما البك فحين استوت قدماه على عتبة منزله زالت عنه

المسكنة ، وشعر بعز السيادة في بيت يملكه ، وخادمة يتأمر عليها وصندوق حديد عال عريض فيه من الوثائق والكمبيالات ، والذهب والحلي ما يفك الاسرى ، ويشتري القصور . وقديماً كان ولا يزال المنزل لمن يملكه رمز الامان والسلطة والطمأنينة . لعل اجدادنا منذ آلاف السنين ، كانوا اذا دخلوا كهوفهم يشعرون بزهو السيادة التي شعر بها حمدان بك حين دخل منزله .

ولقد زاد في اعتزازه وتنفجه رؤيته لجمع ينتظره فقد كانت هناك ام فهد شحرور من الضيعة المجاورة « الهنيدبة » معها رجال ثلاثة من اقاربها ، لاحظ من حركاتهم انهم قلقون مسلحون .

وكان من الطبيعي ان ينغمس الجميع في السلام ومبادلة التحيات والمجاملة . وطفق البك يصيح بخادمته « ام احمد » ان تأتي بالاكل للضيوف . وأصر الضيوف انهم لا يقوون على قبول ضيافته الحاتمية لضرورة رجوعهم الى ضيعتهم . وبعد مد وجزر من دعوات واعتذارات ، وكلٌ موقن ان الدعوة مزيفة وكذلك الاعذار ، هدأت الضجة وبدأت ام فهد تشرح الغرض من زيارتها :

لا يخفى على جناب البك ان غلاء الاسعار ، وضيق المرتزق ، وبعد وحيدها فهد عنها جعلها في حاجة ماسة الى المال ، ومن لها برجل شريف ترتجيه الا جناب حمدان بك الذي فضله غمر الناس ، وكذلك من قبله كان ابوه . ورحم الله زوجة البك فقد كانت تحنو على أم فهد ، ويا وحشة بيت البك كيف خلا من ام واولاد . ألا ألهم الله بيكها ان يتزوج فيعمر المنزل بالبنين . وان ام فهد لواثقة ان البك يأتمنها على خمس ذهبيات ، وهو المحسن الذي اتسع

قلبه لكل مروءة ، ولكن ام فهد تملك لؤلؤة ارسلها لها ابنها من بلاد « تشيلي » فهل للبك ان يحتفظ باللؤلؤة في الصندوق الحديدي فيضمن بذلك سلامتها ؟ وبعد سنة ، ان ابقى الله ام فهد في قيد الحياة ، فهي تعود الى البك بالذهبيات مع فائدتها وتسترد منه الوديعـــة .

قالت هذا واعطته رسالة ابنها فهد ليقرأها ، وبها يخبرها عما يكنه فؤاده من محبة واحترام ، ويشرح لها انه مرسل لها لؤلؤة هدية وهي جوهرة لم يملك مثلها الملوك والسلاطين ، وانه خاطر في سبيل الحصول عليها بحياته وفتك بالعبيد وبطش بالاسود .

واذ ابتدأت ام فهد بفك صرة وبطتها الى زندها تحرك رفاقها الثلاثة وادراوا فيما حولهم نظرات قلقة ، وداعب احدهم خنجره واحكم وضع مسدسه في زناره .

ولو لم يكن حمدان بك قد الف الصمت وحذق ضبط عواطفه لنفجر بقهقهة ! فهد شحرور يرسل لآلىء ؟! ذلك السكير الخليع المائع الكذاب الذي اغترب السنوات ولم يرسل لامـــه بوليصة واحدة ! لأيسر على البك ان يؤمن بان في استطاعته التقاط شعاع القمر وخزنه ببرميل من ان يصدق ان تلك اللؤلؤة هي غير حجر مزيف .

وفيما كان المرابي يفكر ، صارت اللؤلؤة في يد المرأة فحملتها بقبضة مرتجفة وسألت البك بفخر: « كم تساوي » ؟.

كم تساوي ؟ تساوي نهقة حمار في «وادي القرن» في ليلة معتمة مثلجة . تساوي ثقباً في ريال مزيف . تساوي عطسة برغشة في

انفها زكام ؛ تساوي بصقة سمكة في بحر مجهول الموقع .

وادنت ام فهد اللؤلؤة من السراج فالقى حمدان بك عليها نظرة سريعة حققت تشاؤمه ،فقد كانت اللؤلؤة في حجم الزعرورة مكتملة الاستدارة ، موحدة روعة اللون الازرق، شأن كل لؤلؤة مزيفة .غيرانه وقد عركته الحياة وسخت عليه بتجاريبها،لم يسرع الى اصدار الحكم البات بمجرد التخمين . فاستأذن ام فهدبان يفحص اللؤلؤة في الغرفة الداخلية حيث العقاقير ، والمحك ، والمجهر . واذ اذنت له بوضع اللؤلؤة في كفه ، دخل بها الى الغرفة الخلفية . فاقفل النافذة واشعل الشمعة ، وازاح المرآة الكبرى من أمام الصندوق الحديدي وفتح الصندوق ، واستل المجهر والعقاقير .وفي لمحة جاء الدليل يثبت تخمينه بان تلك اللؤلؤة كانت رخاماً خفيف الوزن مطلياً . الله يمحقك يا فهد شحرور !.

وفيما هو يهيء جميل الكلام يرفض بـه طلب ام فهد طنّ في اذنه لحن الحداء الذي سمعه منذ ساعة فحسب نفسه شبه حـالم ، ولكن الحداء صاريضخم ويقترب،فاسرعت الحياة في عروقه وفتح النافذة فتدفق منها نسيم عصف بالشمعة فاطفأها، وغمر الغرفة نور فاضاءها بشبه شعلة هيولية . وكانت اذ ذاك كوكبة من فتيات الضيعة بلغت من الطريق ، بوابة بيت البك ، وقد اصبح الحداء على اشده ، وانطلقت الرصاصات ، فلم يشعر حمدان الا وهو ،على غير علم منه ، قد شد قبضته عـلى اللؤلؤة ورفعها الى فوق رأسه وصاح : « صحائفك يا حمدان بك » وراح يترنح طرباً على انغام الحداء ويرقص في الغرفة ، شأن الفتيان الذين هم على مقربة منه

في الطريق .

ويتغنى « .. بني معروف .. صوت المروّة .. خل ّخسيس » .
وفيما هو يدور على نفسه واجه المرآة فرأى على وجهه ظل الحداء الذي يسمعه ، فاستحالت سحنته الى طلعة بهية في صفـــاء محيّا الناطور ابي عباس ، وبرقت عيناه بالبأس كعيني حسن امين الله ، وجس اعلى ذراعه فلمس جدائل من العضلات صلبة لم تكن هناك من قبل ، وشعر كأن انوار القمر التي احتاطته قد كثفت حوله واشرأبت فاحتملته فهو يطفو عليها مهتزة تتعالى .

هذه الكرة التي نحن عليها قلبها مائع حارّ تحتاطه طبقات من تراب وصخور ؛ وفي بعض الاماكن جليد وثلوج ، غير انها تجف احياناً في هزة تشقق قشرتها ؛ فيندفع الى الخارج ما في قلبها من حرارة سيالة فتشب بركاناً ثواراً .

ولقد نما حول قلب حمدان بك طبقات من صخور صلبة وتراب قذر ، وجليد صقيع ، غير انه حين اشترك في الحداء مع فتيان قومه ، ورقص على ترنح انغامهم ُزلزلت نفسه زلزالها . فهو حين رجع الى ام فهد وضع في يدها خمس ذهبيات ووثيقة تعلن : « وصلني لؤلؤة اصيلة .. ارجعها حين الطلب .. بدون فائض » .

بدون فائض ؟! ومن حمدان بك ؟! .

ـ اعطاك ربي قوة الف اسد يا سيدنا البك ، وجعل مالك اكثر عدداً من نجوم هذه الليلة ، ولينعم الله عليك بعروس فاضلة تملأ هذا البيت صبياناً ، وليمسِ عدوك اذل من خرقة بلعها كلب جرب ثم بصقها ، ولتعش ابداً ما دام الحي لائقاً بالحياة .

هذا وعشرات من منتخب الدعاء اسمعته ام فهد لحمدان بك ، ثم لملمت نفسها ورفاقها وانصرفوا عائدين الى قريتهم .

واقتربت حينئذ من البك ، على عادتها ، خادمته « ام احمد » باناء استوعب عشاء الكديش اذ تبعثرت في اسفله حبات شعير كان الواضح ان البك يدري انها لا تكفي غذاء لجسد حيوان تعب النهار كله ، ولعل صاحب ذلك الجواد اراد بتلك الحبات من الشعير تقوية معنويات حصانه .

وشد ما كانت دهشة الخادمة حين لم يصرفها سيدها مصادقاً على كمية الشعير بهزة رأس شأنه كل مساء ، بل خاطبها بلهجة ناعمة « املأي الوعاء كله شعيراً للحصان » . ثم زاد « وافرشي الطراحة والمسند قرب المعلف » . واذ غابت الخادمة ، مشى البك الى غرفته ففتح خزانة ظهرت في اعلاها تنكة صغيرة ملؤها اعقاب السواكير التي كان يلتقطها بعد انصراف زواره ، فافرغ التنكة على الارض واخذ يدوس اعقاب السواكير متمتماً شتائم . ثم فتح احد جوارير الخزانة وانتزع منها سيكاراً فاخراً وخطا الى حيث الحصان يزدرد الشعير غير مصدق شفتيه ولسانه ، واقتعد تلك الطراحة والمسند ، ولم تمض هنيهات حتى جاءته الخادمة بالعشاء ، فأكل متمهلاً متذوقاً طعامه ، وما ان فرغ من العشاء حتى تمدد على الطراحة ، والقى رأسه على المسند ، واشعل سيكاره ، وراح يصغي الى صرير اسنان تطحن الشعير ، وكأن الحصان بدأ يؤمن بصدق ما يأكل ، فتمهل في الازدراد ، واخذ يتودد الى سيده بصهيل حنان .

هكذا اضطجع حمدان بـــك ناعساً ، وقبالته صورة جميلة

مضطربة مشوشة ، شبه حلم مقامر اثر جلسة بوكر منهكة رابحة . فكان يرى الناطور وكوكبة الشبان وام فهد واللؤلؤة ، ووعاء الشعير في لوحة ترتجّ امام عينيه على حداء اغنية القتال « .. نسكر بالدما . صوت المروّة »

وهب النسيم من جديد وكبر القمر ، وفيما هو يغفو شعر البك انه صار جزءاً من مخلوقات الله . ولاول مرة في حياته شعر انه هادن الخليقة واصبح على وئام مع ربه ، وحصانه ، وبني قومه .

وطلعت شمس صباح اليوم التالي على الضيعة الهادئة ، واستعاد موكب الحياة فيها سيره البطيء المعتاد ، وخرس صوت الحداء ، واختفى ظله عن وجه المرابي ، وعاد الجوع يتوطن امعاء الكديش ، ورجع البك يمزق اللفائف عن اعقاب السواكير و« يفبرك » منها سيكاراته ، وراح الصندوق الحديدي يفغر فمه لينهش ، ويدفن في بطنه آمال الناس وكنوز البك .

وفيما حمدان بك تداعب انامله مسبحة الايام ظهرت ام فهد من جديد تترأس وفدها ومعهم من الهدايا سطل لبن ، وسلة خوخ ، وعلى ألسنتهم من الشكر طوفان من الالفاظ ، يؤدون واجب الشكر للبك ويعرفونه الى رفيقهم الافندي البيروتي الانيق الثياب ، التاجر المتجول الذي يشتري اي شيء ، والذي تطمح ام فهد الى بيعه اللؤلؤة ، فقد كشفت لها الايام ان جهادها في سبيل استبقاء الجوهرة دون طائل ، وانها لا تريد ان تلوث وجهها امام بيكها بان تعجز عن دفع دينها . وفيما شلال من الكلمات ينصب على رأس المرابي ، نهض الافندي البيروتي متبرماً واعلن انه على عجل

من امره ، وانه يريد ان يرى اللؤلؤة حالاً . وقديماً عرف عن « البيارتة » انهم والمجاملة المستطيلة في حرب دائمة .

*

تمرّ على الانسان هنيهات من العمر يفقد خلالها حواسه الخمس ، ويصبح ميكانيكي السلوك تديره غريزة الطاعة لقوة يجهلها . هكذا فتح حمدان بك صندوقه وناول التاجر البيروتي تلك اللؤلؤة . وسرعان ما قهقه الافندي ساخراً . وكأنما غاظته تلك اللعبة فانفجر : « لئن كانت هذه لؤلؤة ، فانا السلطان عبد الحميد! لفلفيها بالشمع يا ام فهد فقد تصلح اذ ذاك سداً لثقب خابية . بل اعطيها لاحد احفادك يلعب بها كلة . ولئن خطر على بالك ان تهزئي بي مرة ثانية فحاولي ان تكون النكتة مضحكة !» .

قال هذا وانصرف حانقاً .

اما ام فهد فصعقها هذا القول ؛ وتفرست بحمدان بك فرأته واجماً ، حائراً فرقاً . وفجأة ذكرت سيرة ذلك المرابي وما تعرفه من انباء قسوته وعدوانه . وما سمعت عنه من اساليبه الابليسية . اذاً فمن اجل هذا ادانها المال من غير فائض - حتى اذا ظفر بجوهرتها استبدل بها ثانية مزيفة . ولقد غدر من قبل ام فهد بالف ارملة وفقيرة .

واستفاقت المرأة من صعقة اللطمة ، فكشفت عن رأسها وصاحت بصوت مزق الجو ، وثقب النجوم « ي ... ا ... ذ ... لّ ... ي ... ! » .

*

سيبقى ذلك الخميس يوماً يذكره الناس في ضياع « الشوف »

من لبنان . فقد اجتمع الناس افواجاً في ساحة المحكمة حيث جلس القضاة الثلاثة ليصدروا حكمهم في دعوى استبدال اللؤلؤة المزيفة باللؤلؤة الاصلية . وقبل ان نطق رئيس المحكمة بالحكم ايقن الجمهور ان الحكم سيكون صارماً . فالقضية واضحة : الايصال ذكر ان اللؤلؤة اصلية . وقد اعترف البك الظنين ان اللؤلؤة التي اراد ان يسلمها للتاجر البيروتي كانت مزيفة . الشهود ؟ مئات تطوعوا للشهادة . المدعي العام ؟ من اغتصب من ابيه كرم العنب حين استدان ابوه مبلغاً صغيراً يدفعه رسم المدرسة عن ولده . التصرف الاخلاقي ؟ كم مئة شاهد تريد ؟ الدفاع ؟ البك لا يدفع اجرة محامين .

ثماني سنوات واربعة اشهر وواحد وعشرون يوماً .

وتفجر الصياح ، واشتد التصفيق . وحين مشى البك بين جنديين الى الخارج ، سمع كوكبة الشبان تحدو من جديد : «نسكر بالدما ... خسيس النفس» . فشد باصابعه على كفه فوجد قبضته فارغة من اللآلىء ، واصغى الى الحداء فاذا هو اجوف لا جسم له ولا ظل . واذا الوان الحياة بهتت ، واذا به قد هرم في لحظة ، فهو يعجز ان يبغض الناس او يهواهم .

*

لئن حملتك قدماك الى جنوبي لبنان ، فلا يفوتنك ان تزور «بيت الدين» فلعلك اذ تقبل على ميدان السراي ، تلمح قامة مستقيمة كالحربة تلبس عباءة مقلمة حمراء بيضاء وتعتم بعمامة بيضاء مكورة شأن اجاويد الدروز . ذلك هو الناطور يتطي حماره في طريقه

الى حبس « بيت الدين » ليزور حمدان بك. ولقد تزحم السيارات الناطور وحماره ، فلا ينذعر هو ولا ينذعر حماره . بل هو يمشي بحماره على حافة الطريق ، كما يعيش هو على حافة الحياة لايرتقب ، ولا ينهر . فاذا اطلّ على فناء السجن ابصر البك وقد ارخى لحيته ، ورأى السجين حمدان بك في الناطور الصديقَ الاوحد الذي لم ينقطع عن زيارته مرة في الاسبوع . وقد يتبادلان الحديث ، فيتألم السجين :

— « اني اردت الاحسان الى ام فهد حين اسلفتها المال على لؤلؤة عرفت انها مزيفة . انهم ظلموني بذاك الحكم . »

فيجيب ابو عباس :

— « ان حكم العبد على العبد فاسد . وليس من حاكم الا هو سبحانه وتعالى . »

— « لقد سجنوني ! »

— « الدنيا كلها سجن ولن تُسرح منها الى حين نموت . »

— « وهل انت تعتقد انني ابدلت اللؤلؤة ؟ »

— « العلم عند علام الغيب . ويا فرحة المتهم ان كان عند الله بريئاً . »

— « وفهد شحرور ، ألم يكتب من « تشيلي » ؟

— « لقد انقطعت اخباره مثلما ستنقطع اخبارنا . »

ويشكر البك للناطور المآكل والاثمار التي اتاه بها ويستعطفه ان يرجع اليه في الاسبوع التالي ، فيجيب ابو عباس انه سيرجع ان قدّر الله له الحياة والرجوع وقدّر للبك ان يبقى حياً حيث هو . اما البك فيعلم انه سيبقى حياً الى ان تنقضي مدة سجنه ، بعد

ثلاثة شهور . وهو قد تأهب للعالم الخارجي فقدارسل لحيته ولكن في وسعه ان يحلقها ويرجع الى سابق عيشه ، وفي وسعه ان يحلق شعر رأسه ويتعمم فيمسي من الاجـــاويد . ولا يزال تفكيره حسابياً ، ينظر الى طلعة الناطور الصافية تشف عن الثقة ، والبهجة ، والحبور التي تملأ نفسه فيقول ماذا عليّ ان صرت في صف الاجاويد؟. الآخرة ؟ من يدري ما هي واين هي ؟ من يعرف ان هناك آخرة ؟ ولكن حمدان بك يعرف وقد سبر العمق الصافي من نفس الناطور ان الاجاويد في تحريهم ربح تلك التي قـــد لا تكون موجودة — الآخرة — قد ظفروا بربح هـــذه الموجودة — الدنيا — وهو حائر فيما يفعل اذ يخرج الى الحياة ثانية — ايمسي حليق الوجه ، او يغدو حليق الرأس جُوّيداً يثأر للناس من نفسه بان يقهر نفسه .

في قدرته ان يروي عطش نفسه وينعم بهذه الدنيا « جوّيداً » متقشفاً متعبداً شريفاً ، او مرابياً منتقماً ، أمّاراً شرهـاً . امـا الآخرة — ترى ماذا همس العقل في اذن حمدان بك وما هو فاعل اذ يخرج من سجنه ؟

لعله في حيرته مرهف سمعه لصوت يتفجر من اعمـــاق نفسه ويرمي ظلاله على طريقه ...

غابة الكافور

لا ، لا يا صديقي . نحن هنا ولن نبرح هذا المكان . لك ان تعجب كيف انطويت على نفسي وصار يخيفني ان القى الناس . أنسّبني ما تريد . تغنّ بجمال هذه العشية ما شئت فلن تغريني بمغادرة المنزل . انا اعلم كم هي ساحرة ضواحي المدينة ولكنك لن تقلعني من هـــذا الكرسي . لقد اثرت فضولك ؟ اذاً فمن الحق علي ان اكشف لك عن السر . ما هو بلغز حبي للعزلة ، فقد جاء هذا اثر فسحة قمت بهـــا في العام الماضي ، في مثل هذه العشية ، والى ضواحي المدينة .

كان ذلك بعد الغروب ، ساعة الوحشة ، اذ نفرت من هذا البيت وركبت سيارتي قاصداً ظاهر المدينة . فلما بلغت حيث عرضت الطريق وضخمت البيوت وتعالت ، ترجلت ورحت امشي متمهلا اسرح نظري في القصور – ضاحية الملايين يسمونها . وكانت هذه الملايين مشرعة اشجاراً باسقة ، منبسطةً حدائق من زهور ، شامخة اعمدةً من مرمر . ولما نزل الليل توهجت مصابيح من كهرباء ، ثم ضجت صاخبة من حناجر الفونغراف والراديو .

وكان اعظم ما ادهشني اسماء سطعت بنور على مداخل هذه

القصور تعلن اسماء اصحابها ، كأن مالك القصر لا يقنعه ان ينعم بملذاته من غير ان يذيع عن نفسه انه هو الذي يسكن الفردوس لا سواه . زد على ذلك شغف الانسان باسمه . أتريد ان تصبح غنياً وتسكن الضاحية ؟ اذاً فاخترع آلة تحفر اسم الانسان على جبينه بحروف من « نيون » من غير ان تؤذيه . أشعل سيكارة . لا تتثاءب . فالقصة التي ارويها ستهزك . واني استأنف سردها من غير ان ازعجك بفلسفة .

ولبثت امشي حتى اصطدمت عيناي باسم على بوابه « فيلا ريموندو توباسيو » الله ! الله ! اذاً فهنا يسكن ، بل يختبىء صاحبنا « ريموندو » الذي سماه الناس « البركان » .

ووجدت نفسي في البوابة تحت سطرين من نور « النيون » امام ما يشبه الحائط من بواب يزدهي ببذلة رسمية ، اسأله ان يخبر « ريموندو » اني اود ان ادخل عليه .

ولقد اشمأز البواب من لهجتي ، وسؤالي عن سيده باسمه العاري « ريموندو » لان تحقير السيد يصغر من شأن المسود . عفوك لقد وعدتك ان لا اتفلسف . لقد انطفأت سيكارتك . اشعلها . علبة الكبريت الى يمينك .

قلت ان البواب استاء ، فرفع خرطومه في الفضاء واستل منه عاصفة من هواء نفخت صدره ، ونفخها في وجهي قائلا : « سأرى ان كان دون — دون ريموندو في القصر »

وفيما انا انظر الى ذلك الحائط يمشي نحو القصر ليخبر صاحبه باسمي ، رحت اذكر عن ريموندو الف حادثة . ريموندو كان يحرر

عموداً في جريدة يومية عنوانه « نار البحيرة » . ولقد اطلقوا عليه لقب « البركان » لان حبر قلمه من حمم ، ولان لسانه من نار . وقد كنت كسائر الناس اقرأ مقالته اليومية واطرب لها. كذلك كنت اعرفه معرفة شخصية حميمة . وأحب منه الثوب العتيق الذي يلبس ، والفقر الذي يلازمه ولا يقهره . اذكر ليلة كنت في احد الملاهي ، والساعة متأخرة ، فاذا بخادم يدفع الي بورقة حساب بنحو خمسين ريالا وضمنها ورقة قرأت فيها : « يا صاحبي ، ان شقراء فتانة تملأ ذراعي فلا استطيع ان أمد يدي الى جيبي . اليك قائمة الحساب فاما ان تدفعها واما ان تقول للجرسون أن يبلعها .

« البركان »

وبالطبع دفعت الحساب واحتفظت بالقائمة . من يدري ، عل هذه النزهة تعيد الي نحواً من خمسين ريالا كنت احسب انها ضاعت .

وعاد الحائط فانحنى امامي باحترام ودعاه حضرتي » ان اشرف القصر ، فالسيد في الطابق الثاني على الفراندا التي تواجه البحر .

وحقاً لولا وثيق معرفتي بريموندو لتهيبت ان اقحم ذلك الفردوس الحجري وخشيت ان انقل الخطى على تلك الطنافس . ولو لم يظهر في كل منعطف خادم يدلني على الدرب الذي يجب ان اتبعه، والدرج الذي اتسلقه لضعت بين تلك الرياش واللوحات الزيتية والاشياء الفنية .

غير ان صمتاً يرعد في جوانب القصر ادخل في نفسي قشعريرة

فلم اسمع ضحكا او صراخاً ، ولا صخب راديو ، ولا صوتاً نسائياً ولا عراك اولاد.

هذه التأملات المرعبة السريعة فارقتني حين دخلت الفراندا فأبصرت اجمل منظر في حياتي، وسمعت ريموندو يرحب بي فأجبت: « مرحباً يا بركان ! »

فتضاحك ريموندو وفتح فمه بـ « آ... البركان . اخالك جئت تستوفي الخمسين ريالاً . ابشرك انك ستقبض ، ولكن اجلس ، أتريد ان نشعل المصباح ، ام انت مثلي يروقك ان تتمتع بهذا المنظر الالهي... انظر الى البحر واستمع الى وشوشته .هذه قوارب الصيادين انظر ، اترى النار تشع حول مجاذيفهم . ان المياه يسطع فسفورها في هذه الرقعة من البحر . »

قلت :تلك « نار البحيرة »؟ بلى افضلها على المصباح الكهربائي » وجلست وجلس هو في اقصى الفراندا بعيداً عني .

غريب كيف صمتنا نحن الاثنين في عتمة الفراندا .

وكأنما احرجه السكوت وهو المضيف ، فطفق يكبس الزر الكهربائي فيظهر الخدم بالصواني ، والمآكل والمشروبات . ثم يعود فيشير الى مفاتن المشهد البحري ويتغنى بالهلال الذي بدا بين الغيوم .

لعل الويسكي هي التي اطلقت من لساني سؤالاً وقعاً اذ صحت بجليسي: « خلّ عنك الهلال ، والبحر ، والزوارق ، والصيادين ، واوضح لي هذا اللغز . القصر وعزلتك عن الناس ، ونار البحيرة التي انطفأت ، والبركان الذي خمد ... » .

اجاب ريموندو : سأفتح لك قلبي ان قدرت . اني اشعر ان بلهاً جمّد خاطري، لعلي ان انتفضت مرة وبحت ،استعيد شيئاً من شعوري الواعي وحيويتي . انت تذكر انني كنت محرراً في جريدة . كنت تقرأني كما يقرأني مئات الالوف ، وكنت تلقاني ، كما يلقاني سواك ، بابتسامة ودعابة ، ونظرة تحبب . كنت فتى في معركة الحياة ، لم اخضها كجندي ، بل كعصابة تضرب وتبطش هنا وهناك ، مستهزئة بكل انسان وكل شيء . اربعماية ريال كان راتبي اقبضه في صباح آخر الشهر واوزعه بعد ظهر ذلك اليوم على دائنيّ ، على بعض دائني . لا اذكر سوقاً ليس فيه حانوت على الاقل لم يدون اسمي فيه بدفتر الذمم ، ولم اظهر في جمع خلا من بعض دائني . انت تذكر خطاباتي على الراديو ، كنت افتتحها بـ « يا اصدقائي ودائني » .

غير اني لم اكن لصاً ولا نصاباً . بل كنت اصنف الديون التي علي فما يُدفع منها في آخر الشهر فهو دين موفى ، وما يبقى فهو دين مؤجل .

كان البريد يحمل اليّ في اليوم الواحد اكثر من مئة رسالة ، تشجيع وشتائم ، غرام وتهديد . كان سواقو التاكسي يتسابقون الى نقلي مجاناً من مكان الى مكان ، ولكم اكلت في الرستوران وقعة فطلبت الحساب فابتسم صاحب المطعم وقال « واصل » . كم من مرة جلست اشرب في النادي فاذا بقنينة شمبانيا تظهر على طاولتي وبطاقة بيضاء كتب عليها « هدية من معجب » . اما المعجبات ! ؟ قد يكون بين سلاطين بني عثمان من ساواني في عدد

محظياته ، ولكن «حرملكي» لم يكلفني ريالاً واحداً .

اما رجال الحكومة ، وكبار الصناعيين فكنت بعبعهم . لم يقم رجل زل عن السبيل السوي الا وابصر اشلاءه مبعثرة في عمودي اليومي .

انت تذكر حملتي على وزير البحرية . من لم يقرأ انباء «اسطول اليابسة» ، و «اميرال المسبح» ؟ من لم يعجب بوصفي «المدرعة المسنة» ، أو وزير البحرية و «المدمرة السريعة» زوجته . انت تقهقه ، اذاً فلا تزال تذكرها ، وتذكر «الغواصة» .

وفيما انا في وهج الحملة على وزير البحرية ، رن تلفوني وطلبني معاليه ، فخاطبني باللهجة الناعمة ، والكلام الكيس ، ورجاني ان اتوجه اليه فأقابله . قلت «واجرة التاكسي» ؟ اجاب ان سيارتي على باب الجريدة . وفعلاً أطللت من الشباك فرأيت اوتوموبيله الازرق لون البحر ولون البحرية .

وفيما انا غائص في اطالس السيارة ، تسارعت الى خاطري الف نكتة ، والف مقالة عن هذه الزيارة .

ودخلت على وزير البحرية وكنت ألمح ابتسامات في عيون معاونيه . فلما جلست اليه استمع شعرت كأني فأرة تلاعبها هرة ، وصرت اتوقع ان يمزقني في اي لحظة .

غير انه استمر في ملاطفتي ، وراح يدعوني بـ «يا بني» : «يا بني انت فتى نابه ذكي ، اني فخور بك ، هذه البلاد يلزمها براكين مثلك ، لا تحسب اني ناقم عليك يا بني . انا احب الانتقاد واشجعه . كلنا انسان ، والانسان غير معصوم عن الخطأ . ومن واجبك

الصحافي ان تدلنا على هفواتنا . وماذا عليك ان اشرت الى هذه الاغلاط باسلوب فكه ، وعبارات لاذعة . انت تنهي مقالاتك بـ « طعقة كرباج » تلك العبارة الحارة المتفجرة اللاسعة التي تسبق توقيعك ــ أليس كذلك يا بني ؟ لعلك لا تطيق المديح فقد ملت اشادة الناس بك ، واني لم ادعك الى هنا كي اتغنى بادبك ونبوغك الصحافي بل لاطلعك على مشروع . انت تعلم ان وزارة البحرية قيمة على احراج الدولة وهي املاك مساحتهـــا عشرات ألوف الهكتارات ، تملأها اشجار هائلة من يدري كم عمرها نستعمل خشبها في بناء سفن البحرية .

هذه الاحراج لا تصلح كلها لبناء السفن . ومن الجريمة ان لا تُستغل . والقانون يا بني يبيح لاي مواطن ان يملك عشرة آلاف هكتار ان سبق سواه الى تقديم الطلب ، شرط ان نكون قـد اعلنا ان هذه الاحراج لا تصلح اشجارها لبناء السفن . اودّ يا بني ان تقدم طلباً لاستملاك غابة اشجارها كافور ، نسميها « غابـــة الكافور » ، وخشب الكافور كما تعلم يستعمل للصناديق لا للسفن . انت لا تقدر ان تستثمر هذه الغابة ، ولكن شركة اميركية تستأجرها منك . تعلم يا بني ان قانوننا لا يسمح للشركات الاجنبية ان تستأجر من املاك الدولة ، ولكنها تتعاون معك على استغلالها . الواقع ان ممثل الشركة هو الآن في المكتب الخارجي وهو مستعد ان يوقع معك اتفاقية تمنحك خمسين الف دولار في السنة . هكذا تعمر جيبك بالمبلغ الذي تتقاضاه ، وتعمر الخزينة بالضرائب التي نجنيها من تنفيذ المشروع ، ويرتزق ألوف من العمال والمقاولين .

وقّع هذه العريضة يا بني. واني لا اريد ان اتجنى على مثالينك، فثابر على العمل في مهنتك ولتبق حمك ثائرة ايهـــا البركان !»

ووقعت .

وفي اليوم التالي جئت مكتب الجريدة على عادتي كل صباح. وجلست لأدون قطعتي اليومية فهالني خلو خاطري من المواضيع. وبعد جهد كبير دفعت بالمقـــالة الى منضد الحروف المسن الذي يقرأها قبل ان يصفها . فدهشت . اذ انه سألني لاول مرة ان اقرأ له بعض كلمات عجز عن فك لغزها . وبعد قليل صعد الي بثوبـه الملطخ بالسواد وقال مبتسما : «نسيت شيئاً يا استاذ . اين طعقـة الكرباج في آخر المقال ؟ !»

اما بريدي اليومي فخف شيئاً فشيئاً الى ان اضمحل فلم تعد تأتيني في الاسبوع الا رسالة او اثنتـان . وراح رئيس التحرير يشاكسني . وذات صباح مرّ بطاولتي فقرأ مقالتي ثم تناولهـــا ومزقها ، ونصح لي هازئاً ان لا اكتب الا عن الطقس .

وفي تلك الاثناء تمت معاملات غابـــة الكافور ،وقبضت ، فتركت عملي في الجريدة وبدأت في بناء هذا القصر .

اتدري سبب عزلتي عن الناس ؟ الآن ترى . ترى بعينيك الاثنتين .تعال اقترب من هذا المصباح . ها هو يشع فاقترب مني الان وتفرس في وجهي . قلت لك حدق .»

واخذ بذراعي وادنى وجهه الى اللمبة الكهربائية وراح يصيح «قلت لك حدق. حدق . ألا ترى الاشجار انطبعت على سحنتي . اخبرني ألا ترى غابة الكافور على وجهي ؟ !» .

واحلف لك اني حدقت ورأيتها مرتسمة على محيا « ريموندو ».
فقلت مرتعشاً : اني أراها . اني أراها . ثم صاح بي من جديد :
« انشق . انشق . ألا تشم رائحة الكافور تنبعث مني ؟ أجب .
أجب ! » .

فنشقت مغمضاً عيني . وأحلف اني شممت رائحة الكافور .

وعاد يزعق . « اني اعيش على هذه الفراندا المظلمة كي لا يرى الناس غابة الكافور على وجهي . لقد جلست عنك بعيداً كي لا تكتشف رائحة الكافور التي تحنط جسدي . أنا جثة البركان مشوهة محنطة » .

وتفلتّ من ذراعي « ريموندو » وقفزت من القصر ، وخرجت من بوابته بعد ان دفعت بالحائط جانباً .

فاجعة ريموندو لم تسبب عزلتي . « ريموندو » ما كان بصديقي ، ولو انه كان حبيباً الي . الذي سبّب انطوائي على نفسي ، اني بعد تلك الزيارة للقصر صرت اتفرس في وجوه الناس ، فارى « غابة الكافور » على وجه كل واحد منهم ، وارهف اذني فاشم رائحة الكافور تغمر جثثهم وتحنطها .

لا ، لا ، يا صديقي ، نحن هنا ولن نبرح هذا المكان . تغنّ بجمال هذه العشية ما شئت فلن تغريني بزيارة ضاحية المدينة . لقد انطفأت سيكارتك من جديد . اشعلها ، علبة الكبريت الى يمينك .

المِرْسَاة

القاهرة ٩ اوغسطوس ١٩٥٠

الاستاذ حكمت عبد الجليل

(مصطاف مصري)

ضيعة « عين البرغش » – قضاء عاليه

لبنان

عزيزي حكمت ،

ساعة رجوعي هذا الصباح من الاسكندرية تلفنت الى دارك فقيل لي انك سافرت للاصطياف في لبنان .

الله ، الله !

هل بقي في مصر من يدفع به الجنون الى الاصطياف في لبنان؟ ألا تقرأ الصحف؟ ألا تتابع حملة اديبنا الكبير على مصايف لبنان؟

ولماذا اخترت هـذه القرية – ضيعة عين البرغش – مصيفا ؟ سمعنا بزحله ، وعاليه ، وضهور الشوير – كل هـذه المصايف لم تعجبك فانزويت بين البرغش ، ثم . . . – بالله عليك يا حكمت ان كنت تشعر باضطراب عصبي فاحمل حقائبك وعد الينا .

أنا قلق عليك جداً ويهمني ان تسرع بالجواب ، ان لم تسرع بالمجيء ، ولا تنس انه يشوقني ان اقضي لك اي حاجة تريدهـا في مصر .

سلمت يا حكمت لاخيك عطيه

*

٢٨ اغسطوس – ضيعة عين البرغش قضاء عاليه – لبنان

الدكتور عطيـــه محسن البراوي ، ٥٤ شارع الفجالة

- القاهرة - مصر .

عزيزي عطيه ،

سلامات يا حكيم .

قهقهت طويلا عند قراءتي لرسالتك . تسألني ان كان لي من حاجة في القاهرة . ان لي هناك حاجة ملحة اتوسل اليك قضاءها ، وهي ان تلبس تلك الجزمة الهائلة ، ذات المسامير الفولاذية التي كنت تنتعلها للصيد في اعالي النيل، ثم تتوجه نحو اديبنا الكبير فترفسه في اسنانه .

تسألني لماذا انتحيت هذه القرية البرغشية ، فأجيبك اني لست بعيداً عن المصايف الشهيرة التي ذكرت، بل اني كثيراً ما أرتادها، غير اني آثرت العزلة في هذه الضيعة - اؤكد لك ان ليس فيها برغشة واحدة - وأنا فخور بهذا الاختيار . واني محدثك عن هذه الضياع التي لم تسمع بها، والتي تكبر جداً في عينيك حين تسكنها، وعن اهاليها الذين لا تجد لهم مثيلا في الدنيا ، وعما حدث لي أمس في حفلة مدرسية .

حقاً اني اعيش في دنيا غريبة .

وجدت نفسي ، بعد ان استأجرت أحد بيوت هذه الضيعة ، اترجل من سيارة فيجتمع حولي سرب من أولاد الضيعة أكثرهم حفاة ، متوردو الوجوه . وما ان انزل الشوفير حقائبي حتى تخاطفها الاولاد في مهرجان من صيحة وحبور ونقلوها الى داخل البيت . ولما نقدتهم شيئا من العملة ضحكوا مني هاربين ولم يقبلوا الاجرة.

وحين فتحت الباب لأرتب المنزل وجـــدت جمعا من نساء

القرية ورجالها تطوعوا لخدمتي مؤهلين بي بعبارات معسولة ووجوه باسمة . وما جاء الليل الا وجاءت الوفود تقضي السهرة عندي مرحبين بحرارة وبعبارات شعرية حتى حسبت نفسي ابناً لهم عاد اليهم من فتح عالمي .

ووجدت نفسي حيث سرت ترتفع الايدي لتحيتي فأتساءل ما الذي فعلت مع هؤلاء الاغراب حتى استحق كل هذا التكريم.

اما العنب والتين والخوخ والخيار ، والطماطم ، وسائر الفاكهة والخضار فلا أدري كم ثمنها لأنه يجتمع عندي كل صباح من هدايا الجيران ما يمكنني ان افتح حانوتا .

وحين علموا ان ابنتي في القاهرة تجمع ورق البول جاءتني مغلفات الرسائل الملونة بالعشرات ، فاجتمع لدي مئات من الطوابع البريدية من برازيلية وارجنتينية واميركية واوسترالية . فالظاهر ان عدداً كبيراً من ابناء « عين البرغش » منتشرون في انحاء الدنيا .

وكان اسخاهم في ورق البول فران القرية اذ ان له ابناً يدرس الهندسة في الدانمارك .

حقا انهم قوم افذاذ لهم هوس في تعليم اولادهم كأنه مس الجنون . ترى الواحد منهم مهشم الاسنان ، ممزق الثياب منصباً على الحجارة ينحتها بالفولاذ من الفجر الى النجر — هذا مثل يعنون به من الصباح الى المساء — لكي يوفر ليرة يجمعها الى ليرة حتى تصبح مئات ينفقها على احد أولاده في احدى جامعات بيروت أو باريس أو نيويورك ، وهو يفعل ذلك جذلاً فخوراً ليوفر

لابنه الثقافة العليا التي حرمها هو .

ولقد عزمت ذات يوم على شراء قطعة من الارض أبني لي فيها بيتا كما اشتهي، فيكون لي مصيفاً اسكنه كل سنة. فسألت أحد وجهاء القرية واسمه نجم الازرق ان كان في وسعه ان يهديني الى ملاك يبيعني ، فأجابني انه يملك قطعا كثيرة ولكنها ليست للبيع. بل ان ليس في عائلته - آل الازرق - من يبيع من ممتلكاته ، غير انه أكد لي ان بعض افراد عائلة القهوجي من يهمه جداً أن يبيع أراضي ، ثم أشار علي ان اتصل بالعائلة المذكورة .

وكان رد السيد نجم الازرق على شيء من النزق لم أدر سببه . فلما اتصلت بنمر القهوجي - وهذا وجيه عائلته - سمعت الجواب نفسه الذي سمعت من نجم الازرق. وزاد السيد القهوجي بلهجة غاضبة ان آل القهوجي ليست املاكهم للبيع ، ونصحني ان اتصل ببيت الازرق الذين يسرهم ان يبيعوا بعض املاكهم بلا ريب .

فحرت في امري ولم اكنه سر الكلام الذي سمعته. وتقصيت الامر في كياسة فعلمت ان هؤلاء القرويين يحسبون انه من العار على احدهم ان يبيع شيئا من الارض، وان عداء تقليديا يسود عائلتي الازرق والقهوجي منذ القديم، فكل عائلة تسكن حيا منفرداً، وان الاشارة علي ان اتصل بالعائلة الثانية لمحاولة شراء الملك كان غمزاً وتحقيراً واهانة للعائلة المعادية .

وذكرت اذ ذاك كيف انهم كانوا يفدون عليّ جماعتين ، وكيف يشتعل الحي الواحد بالانوار ، ويرعد بالرصاص ، لحادث

سياسي في حين يبقى الحي الآخر مظلما صامتا .

لذلك صرت احرص في معاملتي لسكان القريـــة على حفظ التعادل ، فان زرت احداً من بيت الازرق في الصباح ، وصلت منزل احد القهوجيين بعد الظهر كي لا أسيء لكرامة أحد ، فانهم عاطفيون الى حد يصعب تصوره . عفوك يا سي عطيه فقد أردت ان احدثك عما حدث لنا البارحة .

منذ أيام جاءني احدهم وهو رئيس مدرسة وميتم في قريـــة مجاورة ودعاني الى حضور حفلة تقـام في المدرسة والميتم فقبلت شاكراً . وما ان خرج من بابي حتى دخله شخص آخر أفادني أنه مدير المدرسة والميتم وانه يدعوني إلى حضور حفلة تقام هناك .

فأيقنت ان العداء المستحكم بين سكان « عـين البرغش » هو طبق الاصل عما ينتشر في سائر الحياة اللبنانية ، وان كلا الشخصين — الرئيس والمدير — بود ان يفهمني انه هو صاحب الدعوة وسيد المدرسة والميتم ، وان الثاني لا نفع له ولا اهمية .

واكتريت سيارة وسرنا نحو ربع ساعـة حتى واجهتنا قرية سوداء البيوت منبسطة السطوح ، يكاد البصر ينزلق عنهـا لو لا بناية بيضاء صغيرة ذات جناحين .

وقال السائق : « هاك المدرسة والميتم . تلك البناية البيضاء ، طولها شبر وعرضها ثلث ، وداخلها معلمان وربع ، وفيهـا تسعة تلامذة ونصف . »

وصعدت درج البنايـة بين صفين من الكشافين ، بعصيهم الطويلة ، وصدحت الموسيقى بلحن عسكري ، وللحال شعرت

بهزة ايقظت روحي فصرت اعجب بكل ما أرى .

وتبعت المدير احدثه واستمع الى حديثه . فقد عظم في عيني كل شيء رأيت ، وضخم هذا البناء الذي لاح من بعيد حقيراً . فهنا بئر احتفرها الاولاد بأيديهم وهذه غرفة تبرع ببنائها مهاجر في الارجنتين ، وهذه مقاعد خشبية تعاون المعلمون على تنجيرها ، وهذه اغطية الطاولات زركشتها اليتيمات ، مصنوعات تنطق بجهود الصغار وتشع روعتها بمواهب .

ولم يخف على المدير حماسي واعجابي فاطمأن الي ولعله أسرف في الثقة اذ اندفع يشكو الي رئيس المدرسة وبلاهته ويقول ان كل ماله قيمة في المدرسة انما جاء برغم مشاكسة الرئيس وغباوته . ثم وقف وقال بلهجة من يفضح سراً خطيراً « أنا الذي ادخل سمير الشعراوي الى هذه المدرسة بعد أن رفضه الرئيس واراد أن يتهمني بكسر القوانين . » قلت « ومن هو سمير الشعراوي ؟ . » فتطلع بي مؤنباً مستغربا جهلي ، ومشى امامي الى غرفة فتح بابها وأشار الى حيطانها حيث انتشرت صور يدوية فتانة حملت توقيع « سمير » .

« سمير الشعراوي هو ابن خطار الشعراوي ، تطلع الى الوادي ، حدق جيداً تر غرفة ، سمها بيتا ، تكاد اشجار الزيتون تخفيها . هذه الاشجار ، وتلك الدوالي في الجلالي الاربعة ، وجل التين على حافة الساقية الجافة هي كل ما ملكه خطار الشعراوي . بلى كان كذلك يملك حماراً ، وجفت صيد . هنالك ولد سمير ، وهنالك ماتت امه وهو في الخامسة من العمر . ولقد سمعت بآباء كادوا

يعبدون ابنـاءهم ، ولكن ليس فيهم من يقرب في هوس الحب خطار الشعراوي ، فقـد كان سمير لابيه الكبر ان شعر في نفسه صغراً ، والقصر على القمة ان ادار عينيه في كوخه ، والحلم تحقق ان نزلت بـه خيبة . سمير سيكون كل شيء وكل عظيمة . لقد حلم بابنه ونجاحه في غفوتـه ويقظته حتى اختلطت احلامه بحقائق عيشه .

مرة زارنا اميرال اسطول . احلف لك ان خطار جاء يقول لي ان راية ابنه ستعقد على اساطيل الدنيا . وسمع ذات يوم ان احد مشاهير الاطباء انتزع رصاصة من رأس جريح فشفي، فأخذ خطار يتحدث عن عجائب العمليات الجراحية التي سيجريها سمير — الدكتور سمير الشعراوي — وفي القرية اليوم من يحلف لك انه سمع الاب ينادي ابنه « يا دكتور » ، ولكم سرح نظره في بعض قصور مدينة « عاليه » وهز رأسه ، « سترى الناس قصر سمير في مستقبل الايام ، وتضحك من هذه القصور » .

الصحيح ان اهل الضيعة الصقوا تهمة الجنون بخطار فقد كان دائما يتحدث عن ابنه وينادي انه سينشر بيرقه على الدنيـا . أما الطفل فلم يكن ليفهم أقوال أبيه كذلك لم يكن فيه الكثير من دلائل النبوغ ، بل كان كثير السهو ، كالسابح في السراب . وكثيراً ما يقف ناظراً الى أشياء لا تسترعي انتباه سواه ، ولقد لقبه عشراؤه من الاولاد بـ « ابو فحمة » ذلك لانـه كان ابداً يحمل فحمة يسوّد بهـا الحيطان . ومرة كاد ابوه يقاتل أفراد عائلة بكاملهـا اذ اكتشف هؤلاء ان الطفل سميراً صوّر على قبر

العائلة حيوانا طويل الاذنين ذا حوافر اربعة .

بيد ان الوالد برغم مظاهر جنونه كان يعرف حق المعرفة ان نجاح ابنه مرهون بدراسته ، وان المدارس تلزمها النفقات وان صراعه مع الارض لايوفر له ما يفيض عنه، لذلك لجأ الى الكياسة والتقرب منا فوجد فيّ عطفا ووداً ، واكتشف في هذا الرئيس صلفاً وغطرسة . ولكن خطار لم ييأس .

ففي الصيف كان يهدي الي العصافير التي يصطادها وشيئا من العنب والتين . وفي الخريف يأتيني بسلة من الزيتون الاخضر . وفي الشتاء كان أول من يظهر من ابناء الضيعة ليساهم في جرف الثلج عن سطح الميتم والمدرسة . وفي كل حفلـــة كان يدور بالابريق على الضيوف ويصفق للزائرين والخطباء .

كنت غائبا في « بيروت » قبل افتتاح المدرسة وقـد بدأوا بتسجيل التلامذة . وخرج خطار من بيته عليه احسن أثوابـــه ووجهه يلتهب فرحـا ، وهو يخاطب ولده ، « أنت في السابعـة يا ابني ،صرت رجلا يا ابني .اليوم تدخل المدرسة ،فتدرس وتجتهد وتنشر علمك فوق سطح الدنيا . »

ولما صار الاثنان هنا سأل الأب عني فقيل له اني غائب، فطلب مقابلة الرئيس ودخل عليه قائلا بفخر : « جئتك بسمير ولم اجيء بقسط المدرسة . ولكني واثق انكم تقبلونه مجاناً . تعلم اني رجل فقير وان سميراً سيصبح فخري ، وفخر هذه المدرسة ، بل فخر الدنيا باذن الله. »

وحدج الرئيس الفلاح وابنه بنظرة ليس فيهـــا الكثير من

الاعجاب . ثم أعـــاد نظره الى أوراق على طاولته واجاب : « ما أنت بفقير ، عندك قطعة رزق ثمينة ، ثم ان قانون المدرسة لا يسمح لنا ان نقبل مجانا إلا الايتام . لمـاذا لا تبيع رزقك ان كنت تعتقد ان ابنك سيصبح فخر الدنيا ؟ أنا مشغول ، أنا على اهبة الذهاب لمقابلة مدير المعارف . » فصمت خطار لحظة ثم أجاب : « أنا لا أملك رزقا فأبيعه ، الكرم ملك ابني كما كان ملك أبي ، سأعود في الغد فأقابل المدير . » وودع وانصرف .

وحين رجعا نحو البيت راح الصبي يبكي ، فطيب الاب خاطر الطفل وقال : « لا تخف يا ابني لقد رفضنا الرئيس ولن يرفضنا المدير . هذا صديقي ، هـذا طيب القلب نبيل ، لا تبك ، ثق بأبيك ، سأدخلك المدرسة بإذن الله . »

في اليوم التالي كنت في الباحة حين استدعاني الرئيس وأشار بقلم رصاص الى لائحـة التلامذة وسألني بغضب كيف أجرؤ أن اسجل اسم سمير الشعراوي بـين التلامذة الذين لا يدفعون . ثم هدد : « سأقدم بك تقريراً الى عمدة المدرسة . لقـــد كسرت قوانينها بقبولك تلميذاً غير يتيم . »

أجبت : « لم اكسر قوانـين المدرسة . ألم تسمع ان خطار الشعراوي انتحر ليلة أمس ؟ »

وقطع حديث المدير عاصفة من التصفيق ثارت في قاعة المدرسة ، فدخلنا . وهناك اذاع الرئيس ان الحفلة تقام تكريما لفوز التلميذ سمير الشعراوي بالجـائزة الاولى في معرض التصوير الذي اقيم في « بيروت » .

وكشف الرئيس عن اللوحة الفائزة فاذا هي صورة فتاة لباخرة هائلة راسية في مرفأ تشدها الى قاع البحر مرساة لا يراها إلا من يحدق في الصورة .

وقد وقع اللوحة « سمير »، وكان عنوانها « المرساة » .

تقدمت من سمير الشعراوي وسألته ما مغزى صورته ، وما الذي أوحاها .

أجاب : « ابي، لقد انتحر ابي حتى اصبح يتيما فتيسر لي ان أنال ثقافتي مجانا . انه المرساة تغرق نفسها لكي يستقر سواها . »

***

تقول يا عزيزي عطيه انك سمعت بزحله وعاليه ، وضهور الشوير ولم تسمع بـ « عين البرغش » . واقول لك انك ستسمع بالمهندس الذي يدرس في الدانمرك ولن تسمع بابيه الفران .

تخبرني انك عدت من الاسكندرية . اراهن انك رأيت هناك البواخر ولم تر مراسيها .

اخبرني متى يكون قدومك الى لبنان فأوافيك الى المطار .

اخوك حكمت

فهرست

•

	صفحة
سيرة صاحب غابة الكافور	٥
قفزة النهر	١١
الصورتان	٢١
قصة غير عادية	٣١
القـدم الناطقة	٤٣
ضيعة الكلاب	٥٧
الطابة الخضراء	٧٣
ظل الصوت	٨٧
غابة الكافور	١٠٩
المرساة	١١٩

١٢٦ / ١١ / ٥٠

قالوا...

•

« سعيد تقي الدين أحد قلائل اعادوا الثقة بالأدب فأوجدوا له قرّاء لانهم خلقوا قراءهم خلقاً . ذو إزميل لا يُنسى في قدّ الشخصيات والتركيب واللفظ . يُحَبّ أدبه بقدر ما يُقَدّر فنّه ونكته الناضجة (ولربما هي هكذا لاوّل مرة في الشرق) . لقلمه مداد من نار وارهافٌ بهي وبثٌ ملموم وانيقٌ معاً ، الى ادراكٍ لدقائق الواقـــع يخلع على نتاج صاحبه قوةً وشيمة إنسانية » .

سعيد عقل

« قصص سعيد تقي الدين اشربُ عليها حتى يتهرأ القدح . وهي اشرف من آلاف العناقيد المتفجرة رحيقاً وحريقاً ، واكرم من جميع الخمور الـــتي تتدفق في اعتق خمارة . وادبه ادب انسانية شاملة . هو إله صغير سقط من شبابيك نجمة متلألئة فشربته ارض لبنان » .

نزار قباني

الثمن ١٥٠ ق . ل . او ما يعادلها

مطابع دار الكشاف - بيروت

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58886923
893.78T16 R
Ghabat al-kafur.
RECAP